مِن الأدب المعاصر

١٩٥٧

سامي الكيالي

من الأدب المعاصر

١٩٥٧



الاهداء

الى تلك الروح الهائمة في عالم الحق والخلود

الى تلك الزهرة العبقة التي داستها اقدام الزمن العاتية

الى الجذوة التي اشعلت في قلوب ذويه ومحبيه حرقة لن تخمد والتي سيظل وهجها مشتعلا كلما تجددت ذكراه

الى الذي كانت له يد في جمع فصول هذا الكتاب فشاء القدر ان يطوي صاحب اليد قبل ان ينشر الكتاب.

الى ولدي الحبيب « مختار »

اهدي هذه الصفحات الذابلة .

سامي

للمؤلف :

نظرات في النقد والتاريخ والادب
شهر في اوروبا
سيف الدولة وعصر الحمدانيين
الفكر العربي بين ماضيه وحاضره
الراحلون
ابو العلاء : دفاع ابن العديم عنه
من اضواء الماضي - مباحث تاريخية - « سلسلة اقرأ » -
انواء واضواء - مجموعة قصصية -
المرأة : هذا اللغز الابدي
مع طه حسين - « سلسلة اقرأ »
بنت يزيد - قصة معربة -
الحكيم شهاب الدين السهروردي « سلسلة نوابغ الفكر العربي »

رسالة الاديب

بين مصطرع الاهواء والاعاصير

كثر الكلام في عصرنا هذا عن الأدب والأدباء، وعن رسالة الاديب ، والدور الذي يلعبه على مسرح الحياة ، فهو ، في عرف البعض، ذو رسالة انسانية سامية الاهداف ما جاء هذا الكون الا ليؤدي هذه الرسالة بتجرد واخلاص - كالزعيم المغامر الذي يقود

امته الى حياة حرة طلقة رغيدة ، او كالنبي المرسل الذي يحمل تعاليمه المقدسة الى بني قومه والى البشرية أجمع ، ويتساءل الكثيرون ماحدود هذه الرسالة وهل يمكن ان تحد بنطاق ؟.. انها، في اعتقادي ، فيض من الالهام ينبعث من الاعماق ليرسم للبشرية المتصدعة ، المضطربة ، الهائجة ، القلقة ، المتعبة طريقها الى الحق والحرية والخير والجمال ..

هذه هي رسالة الاديب في مدلولها العام ..

والواقع ، انه ما من شيء يشغل الاديب ـ هذا الانسان اليقظ ، الدقيق الاحساس ، المتحرر من كل القيود التي تعيق تفكيره الحر عن الخلق والابداع ـ نعم؛ ما من شيء يقلقه ويثيره الا الانحراف عن المبادىء

العليا .. وهو لهذا يعمل ما استطاع على تسامي الانسان تسامياً يشعره بذاتيته وانسانيته ، وانه حر مفكر لا يساق في ميوله واتجاهاته كما تساق الانعام ، كل همه - هم الاديب - ان يعمل على فك هذه القيود التى تحد من حرية الفكر وتطور الجماعة ، وهو إذ يبذر بذور الرحمة والاخاء والحب في قلب المجتمع ، واذ يرسم هذه الظلال الوارفة من العدالة الاجتماعية التي ظلت احقابا طويلة حلم الفلاسفة والمفكرين ، يريد مخلصاً ان يرى الكون مغموراً بفيض من السعادةوالطمأنينة، لا يتجاوب في آفاقه غير حلاوة الانغام وجمال الاناشيد ..

هذه خطوط رئيسية من رسالة الاديب .

ولتحقيق هذه الرسالة ، يكتب كل يوم، هواجسه

وامنياته ،يكتب في كل ظاهرة من ظواهر الحياة .. في السياسة والاجتماع والاخلاق ، يكتب قصصا وشعراً وادبا خالصاً ـ هدفه الأول حرية الفرد، وهناءة الجماعة وسعادة البشرية .. وهو، الى رسالته التهذيبية، يبدع كل يوم ، كل مايزين الوجود بروائع الفن وروائع الادب الرفيع ، وستظل الآيات التي ابدعتها روحه اليقظة، الشاعرة ،الملهمة، زاد الانسانية في موكبها الازلي الطويل . فمن عهد الاغارقة ، وقبل الاغارقة بآلاف السنين الى يومنا هذا ، و«رسالة الاديب» تقوم على هذه التأملات التي تصور الشقاء، الانساني ، والوسائل التي تخفف ويلات هذا الشقاء والطرق الناجعة التي ترينا الكون انشودةً علويةً يترقرق على اضوائها الحالمة بريق السعادة وهناءة

الانسانية ـ هدف الادباء كلهم الى هذا، وإذ كتبوا اتأملاتهم، وهي تهدف كما قلنا ، الى تقويم الطبع البشري ـ رسموا هذه الحدود التي تفصل بين الحق والباطل ، بين الخير والشر ، بين السعادة والشقاء ، بين الحرية والعبودية ، بين الانسان المثالي المتفوق وانسان المغاور والكهوف، وجميعهم، وان اختلفوا فى الصورة، فقد اتفقوا في المنهج، أرادوا ان تتنكب البشرية مزالق الهوى والضلال ، وان ترتفع صُعُداً الى ذروة الكمال ، ثم تصوَّروا فردوساً جميلا يخلقونه على طراز « الفردوس الازلي » الذي صوَّرته الكتب السماوية .. وخُيِّل اليهم ان رسالتهم قد انتهت حين بدأت « رسالة العلماء » اي حين بدأت المخترعات تنقل البشرية في القرن التاسع عشر ، من طور الى

طور ، من طور غيبي الى طور واقعي، من الخيال الى الحقيقة، ولقد انحسر وجه الدنيا في مطلع القرن العشرين عن اعاجيب اغرب من الخيال. والواقع، ان ما أبدعه رجل العلم من مستنبطات ومخترعات يفوق في أثره ما خطّه الاديب من رموز واشارات .. ولـكن إلامَ انتهت اليه البشرية بهذه المخترعات؟ انتهت الى ما واجهه العالم في هاتين الحربين العالميتين المبيدتين من دمار مريع !. وذهبت – واأسفاه – امنيات الكتاب والفلاسفة مع الريح وإن بقي أثر كلامهم الحلو العذب صدىً لما هاجت به نفوسهم الثائرة واحلامهم الحلوة العذبة ، وظل الانسان بالرغم مما زودته به رسالة العلم ، هو هو موغلاً في امعه وانانيته ووحشيته وجنونه، كما ظلت

البشرية في اضطرابها وقلقها متعبةً ، هائجة، ثائرةً تعيش في الآلام المضنية والشقاوة الباكية ، ومع كل ذلك فلا تزال ترنو الى تلك اليد السحرية التي تقضي على غمرة آلامها وشقاوتها. نعم ، انها تترقّب الخلاص مما تعانيه من شقاء وآلام فهل تكون نهاية هذه الآلام ، وقد خاب ظنها بثمرة الحرب العالمية الاولى التي لم تحقق لها سعادتها كما لم تحقق لها الحرب الثانية عالمها الافضل الذي وعدت به - هل تكون نهاية آلامها بهذا الاشعاع الذي انبثق من عالم الذرة ؟

لقد ذاقت « هوريشيما » - الجزيرة اليابانية الكبرى - نار هذا الاشعاع فهل ينعم العالم ، بعد هذه

الكارثة التي كانت الحد الفاصل بين الحرب والسلام – هل ينعم العالم بنور هذا الاشعاع وفيضه وما في اطرافه من سعادة وخير ؟

يقول انشتاين في حديث له عن القنبلة الذرية : « انه بالرغم من ان حرباً ذرية ستؤدي الى قتل ثلثي سكان المعمورة ، فسيبقى في العالم من الرجال والكتب ما يكفي لاستمرار المدنية » !!

وقل لي بربك ، أية مدنية هذه التي يتحدث عنها انشتاين صاحب نظرية النسبية ؟ كأني به يقول : ان هواجس الفلاسفة وامنيات الكتاب – ومن قبلهم الرسل والانبياء – ان تعاليمهم وصرخاتهم في اصلاح جبلة الانسان وفي بسط جناحي الطمأنينة والسلام ، وفي خلق

فردوس جميل ينعم به العالم – ان كل هذه الجهود قد ذهبت بدداً ... أأقول ان رسالة الاديب التي تجاوب صداها العميق مع الاجيال قد فشلت واصبح مصير العالم بيد الساسة والعلماء؟ لا اعلم ..

ولكن الحقيقة الراهنة انه قد بدأت اليوم رسالة جديدة في التوجيه العالمي – هي رسالة العلم، والعلماء – وطينتهم من طينة الادباء – هم الذين يستطيعون ان ينقذوا العالم مما يتخبط به من كرب وشقاء. وهم الذين يستطيعون ان يرسموا للعالم الجديد نهجه السوي .؛ هم وحدهم مناط الامل في مستقبل يطمئن فيه العالم الى قيم جديدة تحل محل القيم القديمة في كل شؤون الحياة العامة والخاصة. لقد أدّى الاديب رسالته باطمئنان – ولم

يكن في يوم ما أداة شر . وهو يرجو ان لا يصبح زميله أداة شر . والعالم يتجه اليوم الى العلماء « فهم وحدهم بما أوتوا من سعة الافق في التفكير ـ ومن النظر في الامور بعين سامية بما فوق اعتبارات الحاضر ومنافعه، هم القديرون على ان يرسموا للعالم طريقه ، فهم اقل تأثراً بالحدود القومية وبالاهـواء الوقتية ، وهم قديرون بذلك على التماس القيم التي تصلح للحياة الانسانية في الطور الحاضر » .

ويخال الي، ان الصراع بين السياسة والعلم سيكون قويا في هذه الفترة من حياة البشرية ..

فهل يتحرر العلم من سيطرة السياسة ؟ وهل يتاح للعلمـاء ان يعملوا في جـو حر طليق ـ في هـذه الافاق العلوية التي تسمو على اعتبارات المـادة ؟ وبالتالي هـل

سيكونون في معزل عن الاعيب السياسة وشعوذاتها ام ان علمهم سيستخدم للاغراض الدنية ـ اغراض الرأسمالية الجشعة واغراض الطغاة من الساسة والقادة الذين لا يرون جمال الحياة الا في الهدم ، وفي ان يعيش العالم على بركان من اللهيب !...

لقد خدعت السياسة الادب مرات ، وخدعت العلم مرة واكثر من مرة فهل تتكرر هذه الخداع والالاعيب؟

واذا كان ليس هناك اي خداع فقل لي بربك اين هو « العالم الافضل » الذي وعدت به البشرية ؟ والحرية التي وعدت بها الشعوب ؟

والديمقراطية الحقة التي حارب العالم في سبيلها سنوات ست ؟

والانسانية الوادعة الحالمة هل يقدر لها ان تعيش في ظلال وارفة من الدعة والطمأنينة والسلام ؟..

والامم هل تقوم علاقاتها على اسس من الاخاء والتسامح ؟..

والضعفاء هل في وسعهم ان يطمئنوا على انفسهم من بطش الاقوياء ؟..

لقد عقد منذ انتهاء الحرب الثانية الى اليوم اكثر من مؤتمر واحد، لاقرار مبادىء السلام وحماية الاجيال المقبلة من كارثة الحروب التي اجتاحت الانسانية بآلام وويلات لا توصف . وقد اقر المؤتمرون هذه المبادىء التي ترمي الى صون حقوق الامم كبيرها وصغيرها . وايجاد الشروط اللازمة لصيانة العدل وحرمة الالتزامات

الناشئة عن المعاهدات التي تبرم . كما تعاقدوا على تنمية علاقات الصداقة بين الامم على اساس احترام « مبدأ التساوي في حقوق الشعوب » و « حقهم في تقرير المصير »

وبالتالي « إشاعة الحريات الاساسية للبشر اجمع من غير تمييز في العرق او اللغة او الدين » فهل في وسع الامم ، والامم الصغيرة منها بصورة خاصة ، ان تطمئن الى هذه المبادىء النبيلة ؟. وهل لحمامة السلام ، بعد اليوم ان تحلق في الاجواء حرة طليقة ؟

ان المفكرين لا يزالون يشعرون في قرارة نفوسهم ان « انانية المستعمرين » هي التي تسيطر ، و « اطماع الدول الجشعة » هي التي تحكم ، و « القوى الغاشمة » هي التي تريد ان يكون لها الكلمة العليا في حكم البشر ، اما

المبادىء الانسانية النبيلة التي يلوح بها السياسيون فهي لون من الاحلام الكاذبة واسطورة مجنحة من الاماني العذاب ، فعقلية الساسة الذين يحكمون العالم . وهي عقلية عتيقة لم تعد تلائم هذا العصر كما يقول برناردشو ، هي التي تفرض ارادتها وجبروتها ... وكأني بالمفكرين المؤمنين بالمبادىء السامية النبيلة يصرخون من الاعماق: ما قيمة ابداع الفنان ، ورسالة الاديب ، وجهد العالم ، وصبر المخترع ، اذا كان كل ذلك سيصبح بيد الاهواء الطاغية العمياء _ كأني بهذه الطبقة المصطفاة تقول للانسان _ وقد خالجها اليأس: لا تصدق بعد الان ما يقوله السياسيون ، فأقوالهم اناشيد من الشعوذة يراد بها دائماً سوق الشعوب الى مصير قاتم مظلم ..

. . .

ونتساءل الان ما شأن الاديب في هـذا المصطرع الجشـع وما هي رسالته ؟ نعم ، ما هي رسالته في هذا المصطرع الجشع الذي عوج بالاهواء السياسية واعاصيرها الهوج ؟ في اعتقـادي ، ان رسـالته يجب ان تبعث من جديد بما يوآءم نزعات هذا العصر ،اي ان يترك « برجه العاجي » ليواجه الحياة ويثير النفوس من جديد لعبادة الحق والخير والحرية والجمال .

رسـالتك ، ايهـا الاديب ، القضـاء على روح الاثرة والانانية والبطش والطغيـان . اذ ليس على الاديب ـ وقد كان طـوال العصور ذا رسالة انسـانية سامية ـ ان ييأس من الصدمات .. ان رسـالته لم تنته بعد ، وعليه ان يعمل مع رجل العلم في اداء هذه الرسالة

اي عليهما ان ينتزعا السلطة من « الساسة المشعوذين » الذين لا تروق لهم الحياة الا في الصراع الدامي الذي يستنزف حياة الشعوب - على العلماء والادباء ان يكونوا جبهة قوية لنزع السلطة من القادة والساسة قبل ان تواجه البشرية حربا ثالثة لن تبقي ولن تذر . عليهم ان ينادوا بعقد مؤتمر عالمي لا يشترك فيه الا الصفوة المختارة من رجالات العلم والادب ، يرسمون فيه للبشريه الجديدة انجيلا جديدا ، فمستقبل البشرية اليوم بيد العلماء الذين يستطيعون ان يقضوا على الحضارة في ساعات اذا ظل مصيرهم بيد - الثعالب البشرية - واريد بهم « الساسة » و « دهاقنة الاستعمار » الذين لا حياة لهم الا في إثارة القلاقل والحروب . نعم ، العلماء وحدهم الذين يستطيعون

ان يخلقوا «العالم الأفضل» الذي تفيض من حواشيه السعادة .. فقد آن للبشرية ان تركن الى الراحة والهدوء، الى حياة الظلال والاناشيد، وان تلتمس هذه «الجمهورية الفاضلة» التي نادى بها افلاطون، وتلك «المدينة الفاضلة» التي بشر بها الفارابي، فقد كفاها ما لاقته من شرور وآثام بعد ان غسلت ادرانها أو كادت في هاتين الحربين المبيدتين بهذا الطوفان الدامي الذي تمناه لها شيخنا المعري قبل الف عام!

الارض للطوفان مشتاقة لعلها من درن تغسل

١٩٤٦

النزعات القومية

في ادبنا المعاصر

●

... حين اذكر الادب العربي في معرض بحثٍ من البحوث الادبية اريد من ذكره الشمول الذي يضم تحت لوائه الادب المصري والادب الشامي والادب العراقي والادب الحجازي والادب الاندلسي وكل بقعة عربية ينتج ادباؤها وشعراؤها ادباً يعبر عن شتى منازع الحياة .

والنزعات القومية في ادبنا المعاصر بدأت قوية في شعر الشعرآء وادب الكتاب منذ بداية القرن التاسع عشر وقبيل هذه الفترة بسنوات .

فقد اعتبر الادباء والشعراء والمفكرون ـ اعتبروا ادبهم وسيلة للنهوض بأوطانهم وبالأمة العربية التي ظلت اجيالاً طويلة تحت سجف الغيبوبة والجهالات ، محكومة لغيرها ، لا تتمتع بما تتمتع به الامم الحرة او بما كانت تتمتع به الامة العربية يوم كانت ذات صولة وسيادة وسلطان .

ولقد انبثقت الصيحات من هنا وهناك تقاوم نزعات الطغيان وتدعو الى التحرر من نير الاجنبي ، وتهيب بالشعوب العربية ان تعمل عمل اسلافها في

سبيل العزة والكرامة، وفي سبيل سيادتها وحريتها السليبة.

ففي مصر، كما في سوريا والعراق كانت الدعوة الى اليقظة والتحرر هي سبيل الشعراء والكتاب والمفكرين.

ولا نرجع بعيداً الى الوراء فحسبنا ان نلمع الى هذا الماضي القريب الذي عشنا في ظلاله .. فصيحات الافغاني ومحمد عبده وسعد زغلول واحمد لطفي السيد وقاسم امين وشوقي وحافظ في مصر - ان صيحاتهم كانت دعوات صارخة لتحرير مصر والشرق من العبوديات - عبودية الجهل وعبودية الاحتلال .. اي كان انتاجهم الفكري يقوم على « البعث القومي »، وكان صورة من هذه النزعات التي تثير ادق ظاهرة تمس شعور الامة ووجدانها القومي.

وفي الشام كانت صيحات الدلال واليازجي واديب اسحق والكواكبي وشكيب ارسلان وخليل مطران صيحات قومية ، كان ادبهم وشعرهم يتناول « النزعات القومية » اكثر من أي شيء آخر ..

وقل مثل هذا عن الزهاوي والرصافي والكاظمي في العراق .. وانداهم من كبار الادباء والشعراء في مختلف البلاد العربية ـ ان ادبهم لم يكن في تلك الفترات وسيلة من وسائل التلهية بل كان اداة لهز وجدان الامة وضميرها الغفيان .

ولا ضير علينا ان نجول جولة قصيرة ، من قبيل الاستطراد ، في ادب اولئك الهداة المصلحين الذين افزعهم ما كانت عليه الامة العربية من خمول وغفوة

فراحوا يهيبون بها ان تصحو وان تنهض بأفانين مختلفة من القول ـ من رائع النثر وجيد الشعر ..

فجمال الدين الافغاني ، الى انه مصلح ديني ، كان في مقالاته وخطبه ، ثائراً قومياً يريد للشعوب الشرقية ان تتحرر من الجهالات ، وان تستعيد عزتها وكرامتها ومكانتها السامقة بين الامم الكبيرة الحرة ، اي كانت صيحاته ، ولا سيما في الفترة التي شهد فيها التدخل الاجنبي في عهد اسماعيل ـ كانت صيحاته ذات طابع قومي ، وكانت كلماته كالسوط في جسم الشعب ، فمن كلماته التي دعا فيها المصريين الى التحرر والثورة قوله:

« انكم معاشر المصريين قد نشأتم في الاستعباد ، وربيتم في حجر الاستبداد ، وتوالت عليكم قرون منذ

زمن الملوك الرعاة الى اليوم وانتم تحملون عبء نير الفاتحين ، وتئنون من وطأة الغزاة الظالمين ، تسومكم حكوماتكم الحيف والجور ، وتنزل بكم الخسف والذل ، وانتم صابرون بل راضون ، وتستنزف قوام حياتكم بما يتحلب من عرق جباهكم - بالعصا والمقرعة والسوط وانتم صامتون ، فلو كان في عروقكم دم فيه كريات حيوية ، وفي رءوسكم اعصاب تتأثر فتثير النخوة والحمية لما رضيتم بهذا الذل وهذه المسكنة ، تناوبتكم ايدي الرعاة ثم اليونان والرومان والفرس ، ثم العرب والاكراد والمماليك ، وكلهم يشق جلودكم بمضع نهمه ، وانتم كالصخرة الملقاة في الفلاة لا حس لها ولا صوت .

انظروا اهرام مصر ، وهياكل منفيس ، واثار طيبة

ومشاهد سيوه ، وحصون دمياط ، فهي شاهدة بمنعة آبائكم وعزة اجدادكم ، هبوا من غفلتكم ؛ اصحوا من سكرتكم ، عيشوا كباقي الامم احراراً سعداء .»

وبالرغم من قسوة هذة الكلمة وثقل وقعها على النفوس والاسماع فقد تقبلها المصريون بقبول حسن لصدورها عن قلب رجل محب يريد الخير لمصر والحياة الحرة السعيدة للمصريين ..

ومقالات محمد عبده التي كان يغمرها الحماس الديني ايضاً كامام من أئمة الاسلام كانت في مجموعها صيحات قومية مثيرة ، حتى رأى بعض الباحثين الذين أرخوا لمصر ان مقالاته كانت من العوامل التي اضرمت نار الثورة العرابية : فمن كلماته الحكيمة في قداسة الوطن قوله :

« .. وجملة القول أن في الوطن من موجبات الحب والحرص والغيرة ثلاثة تشبه ان تكون حدوداً .

الاول : انه السكن الذي فيه الغذاء والوفاء والاهل والولد .

والثاني : انه مكان الحقوق والواجبات التي هي مدار الحياة السياسية وهما حسيان ظاهران .

والثالث : أنه موضع النسبة التي يعلو بها الانسان ويعزّ ، أو يسفل ويذل وهو معنوي محض ..

فأذا تقرر ذلك مما قلناه وجب على المصري حب الوطن من كل هذه الوجوه . »

ثم قال ـ وكأني به كان يرد من طرف خفي على كلمة استاذه جمال الدين التي تقدمت هذا الكلام ـ :

« وقد كان بعض الناس يحاولون خلع الشعار الوطني عن ذوي الحقوق والواجبات في مصر والباسهم جميعاً لباس الجهالة والذل ، ولكن ابت الحوادث الا ان تثبت لنا « وجوداً وطنياً » و« رأياً عمومياً » ولو كره المبطلون . على ان منهم فئة لا يزالون يؤلمون اسماعنا بما يكررون من سفاسف القول من مثل اننا تعودنا احتمال الظلم والحيف ، وألفنا الخدمة والرق فلن يستقل لنا رأي ولن نهتدي سبيل الحرية ، كأنما هم لا يعلمون ان اهل الغرب اجمعين تعودوا مثل ذلك الحيف أعصاراً وكانوا في قديم الايام على ضروب من الرق وانخفاض الجناح ، وان العالم بأسره كان فريقين : احراراً يُظلمون وعبيداً يطيعون . اولم يكن في بلاد الفرنسيس من قبل هذا العهد صنوف

من الرقيق يشتغلون في الارض لغيرهم ويباعون كما تباع العجماوات ، او لم يقل كاتبهم فولتير في وسط المائة السابقة :

« لا يزال في بلادنا ستون الفاً او سبعون الفاً عبيداً للرهبان . »

فما بال هذه العادة لم تمنع الفرنسيس من الوصول الى ما أدركوه من رفعة المقام وان يروا امثال تيارس Thiers وجريفي grevei وغمبتا gambetta في ابناء من كانوا من قبل عبداناً ارقاء ..

ولئن كان من فضل هذه المسألة ان يكتب في صدر تاريخها تحرير ارقاء العصر السالف فقد رجونا وحقق الله هذا الرجاء ان يختم ذلك التاريخ بتحرير الذين

كانوا ارقاءهذا العصر ، وحسن ذلك ابتداءً وذلك ختاماً»

ومقالات احمد لطفي السيّد وخطبه كانت في مجموعها دعوة صارخة الى تعزيز الروح القومية، وقد يكون من الاوائل الذين بذروا بذورها الخصبة في عقلية الجيل الجديد . ووجهوّه هذه الوجهة التي حوّلته من التعلق باذيال « العثمانية » الى التمسك باهداب « المصرية » الصحيحة .

وكتب قاسم امين التي تفيض بالنزعات الاجتماعية والاتجاهات التقدمية كانت في مجموعها ايضاً ذات اهداف قومية صريحة .

اما سعد زغلول فحسب ادبه وخطبه ان يكون من اثرها اضرام نار الثورة المصرية في سنة ١٩١٩ والتي

لم يقف لهيبها في حدود المملكة المصرية بل تعدّى هذا اللهب الى الشرق العربي بكافة اقطاره وشتى شعوبه، فكانت صيحاته الثورية القومية ذات دوي ورنين، واثر مكين، في قلوب الشرقيين اجمعين.

ومن قبله الزعيم الوطني الثائر مصطفى كامل، فقد كان ادبه ذا لون قومي صريح، وكانت كل خطبه ومقالاته دعوة الى الثورة والتمرد، فمن كلمة جاءت عرضاً في احدى خطبه النارية قوله:

« اذكروا مصر ..

فان في ذكراها ذكرى آلامها.

وذكرى الآلام يجر حتماً الى ذكر عوامل الشقاء.

اذكروها كما يذكر الولد الحنون امه الشقيق وهو

على سرير المرض والعناء..

اذكروها بآلامها وان كان غيركم يذكر بلاده بمجدها ورفعة شأنها..

اذكروها فأنتم مقدرين لمصائبها، عارفين بحقيقة آلامها، دام الامل وطيداً في سلامتها ودام الرجاء.

اذكروها فمن المستحيل ان يرى العاقل النار في داره والداء في شخص امه، ويهمل النار ويهمل الداء، ومن المستحيل كذلك ان يكون الوطن في خطر ونحن نيام، وان يعمل الاجنبي لامتلاك بلادنا وسلب حياتنا بل لاستعبادنا واسترقاقنا ونحن جامدون لا عمل ولا حراك؛

القوا، ايها السادة، بانظاركم الى الامم الحرة تجدوا كل فرد فيها يدافع عن وطنه ويذود عن حوض بلاده

اكثر من دفاعه عن ابيه وامه بل هو يرضاها ضحية للوطن ويرضى نفسه قبلهما قرباناً يقدمها لاعلان شأن بلاده .

ويعد الموت ،لأجل الوطن ،حياة دونها الحياة البشرية،ووجوداً دونه كل وجود ، فلم لا يكون المصري على هذا الطراز ووطنه اجمل الاوطان واحقها مثل هذه المحبة الشريفة الطاهرة .

اسألوا التاريخ ، ايها السادة ، ما واجب امة دخل الانكليز دارها خدعة وعملوا لامتلاكها وسلبها كل سلطة وكل قوة . . يجبكم التاريخ ان واجب امة هذا شأنها ان تعمل بكل ما في استطاعتها ضد مغتصبها ، وان تبذل في سبيل خلاص وطنها كل ما تملك من مال

ورجال ...»

وشعر شوقي وحافظ والمطران، كان الكثير من شعرهم نفحات قومية تهيب بالشرق الى التحرر والنهوض.

ومقالات الكواكبي كانت صيحات داوية في ارجاء الشرق العربي - تلك المقالات التي اشتمل عليها فيما بعد كتابه «طبائع الاستبداد»، ولا نبالغ اذا قلنا انه كان اجرأ مفكر عربي دعا الى الثورة والتمرد والتحرر - الثورة على الظلم والاستبداد، والتمرد على الطغاة المستبدين، والتحرر من الجهالات والعبوديات.

واديب اسحق المفكر الحر الذي كان متأثراً بالاداب الاوربية - بأدب فولتير وجان جاك روسو ومبادىء الثورة الافرنسية - فقد كان من دعاة الحرية

وكانت النزعة القومية تنبثق كاللهب من ثنايا مقالاته وخطبه .. فمن كلماته من مقال كتبه سنة ١٨٨٠ :

«لقد عرف الناس الان شرور الاستبداد، وترفعت نفوسهم بالعلم عن الرضا به ، وصار الامر شورى عند جميع الامم المتمدنة الا الروسيا !.. وذلك ان صحت تسمية الدولة المستبدة مطلقاً بدولة متمدنة . ان ثورة فرانسا برزت الى عالم الفعل عام ١٧٨٩ وصدمت قوة الاستبداد فزلزلتها ، ودفعت سطوة التقاليد فضعضعتها ورفعت عن العيون نقابها ، وعن النفوس حجابها ، فآنست من جانبها نور الحرية ، وخلعت جلابيب الرق والعبودية ، فتصدى لها اعوان الرق وانصار العبودية وما آلوا في قتالها جهداً ، فلقيتهم وهي ترى الموت في

الحرية حياة ، وفي الحياة في الرق موتاً ، فلم يبلغوا منها قصداً ، ورسخت في عالم الوجـود قدمهـا ، وادهشت الدنيا بشدة حولها » .

وابراهيم اليازجي ، وهو من علماء اللغة الافذاذ ، لم يكن اقل اندفاعاً في الدعوة الى الروح القومية من الكتاب والشعراء ، فكان ادبه يفيض بالنزعات القومية الصارخة ، فمن قوله :

تنبهـوا واستفيقـوا ايهـا العرب
فقد طمى السيل حتى غاصت ِ الركبُ
فيـمَ التعـلل بالآمال تخدعكم
وانتم بـين راحات القنا سُكب
كم تُظلمون ولستم تشتكون وكم

تُستغضبون فلا يبدو لكم غضَب
فشمروا وانهضوا للأمر وابتدروا
من دهركم فرصة ضَنت بها الحقب

وعبدالحميد الرافعي ، الشاعر السوري الحر ، ابن طرابلس الشام ، كانت له صيحات قومية تدعو الى « العصبية الجنسية » فمن شعره يهيب ببني قومه الى تعزيز هذه العصبية قوله :

ما تصلح الدنيا ولا ناسها
ما لم يلِ الاقوام اجناسها

. . .

هبوا بني العرب إلام الكرى
وقد دها الامال دهاسُها

فكم تقيمون على ذلة
وروضة الصبر ذوى آسها
الستم نسل القروم الاولى
تنعل الهامات افراسها
فجردوا العزم الذي طالما
شق صدوراً طال وسواسها

ومعروف الرصافي الشاعر العراقي الكبير ، فقد ظل خمسين سنة يهيب بالامة العربية ان تفيق وان تنهض ، ولأكثر شعره هذا « الطابع القومي » الحر

وارتفع صوت عبدالمحسن الكاظمي الشاعر الأبي بالشعر القومي ، وبهذه النزعات القومية الثائرة

يا أيها العرب وأدعو العرب أنى وجدوا

لئن تشاؤا ان تراحوا من عناء فاجهدوا
الستموا من حُرموا حقوقهم واضطهدوا
وكلما عنَّ لهم ذكر الحمى تنهدوا
اما كفاكم حافزاً ذكر الذين استشهدوا

. . .

ياقوم ان تهاونوا فحركم مستعبد
مَنْ نام عن اوطانه فذاك ميت يلحد
ومَنْ يمت دون حماه فهو حي يُحمد
الوطن الروح وما اهلوه الا الجسد
وكيف يسهو بدن عن روحه ويرقد
مجدي وما مجديَ الا الوطن الممجد
حبيب نفسي وطني آهله والفدفد

☆ ☆ ☆

رب اناس عبثوا بنا ولم يتئدوا
ضلوّا الهدى وُلقنوا ببطلهم وُزودوا
اذا رأوا شاكلة القوم رموا وسددوا

. . .

هيا بنا نعدّ ما تنهي اليه العدد
يفوز من عدته عزيمة لا تخمد
وغيرة جذوتها طول المدى تتقد
ان قيل خطبٌ انبرى أشيبها والامرد
بعض لبعض حرَم بعض لبعض عضد
وكلهم على العدى اذا العدى تمردوا
على سوى نفوسهم في الامر لم يعتمدوا
يا حبذا لو عاد بالبشر القريب العوّد

نروح في ديارنا والعيش عيش ارغد
ونفتدي اوطانا والعز عزٌ ، سرمد

والقصيدة طويلة ، وهي في مأتي بيت تقريباً ، وقد كان الكاظمي يرتجل الشعر ولا تقل قصيدته الواحدة عن المئة والمئتي بيت ، وكلها تفيض بالشعور القومي العارم .

لقد كان للقصائد التي نظمها الزهاوي والرصافي والكاظمي والشبيبي وغيرهم من شعراء العراق - وهي ذات نزعات قومية صارخة - كان لهذه القصائد أثرها البليغ في إهاجة النفوس التي انتهت لا الى « الوعي القومي » فحسب ، بل الى اضرام اكثر من ثورة على الغاصبين .

وكما كان الاتجاه القومي سبيل الكتّاب في القرن التاسع عشر ، فقد ظلّ هذا الاتجاه سبيل الكثير من الكتاب والشعراء والمفكرين حتى مطلع القرن العشرين والى يومنا هذا .. ذلك لان الأمة العربية لا تزال في نضالها العنيف مع الامم المستعمرة .. ولا بد للأديب من ان يتحسس باحاسيس قومه ، يعبّر في نثره وشعره عن هذه الاحاسيس .

ولأن كانت النزعات القومية في ادبنا بالامس محدودة النطاق ، فقد اتسعت اليوم واستفاضت ، واصبحت شائعة على السنة القادة والزعماء والادباء والشعراء ، تملأ اعمدة الصحف ، وتصدر في شئونها الرسائل والكتب .. وما تلك المقالات الرئيسية التي

تكتب كل يوم في الصحف ، والخطب التي تلقى في المناسبات القومية ، الا صورة من صور « الادب القومي » الذي يؤرخ مرحلة من مراحل جهادنا الطويل ولا سيما في هذه الفترة التي يصطرع فيها الحق مع الباطل ، وتقف الامة العربية جبهة واحدة ضد مطامع المستعمرين .

وقد كان الادب القومي عند جميع الامم ، وفي مختلف العصور ، بواعث لحفز الهمم وركائز لدعم السيادة ، وما تخلت أمة قط ، حتى الامم القوية التي تمتع بسيادتها وجبروتها - عن دعم ادبها القومي لانه غذاء دسم للامة وأي غذاء ، بل هو بعض مقومات كيانها .. وهو ، الى قيامه بهذه المهمة الخطيرة في احياء

الشعور القومي والحفاظ عليه ، يظل صورة للتعبير عن خوالج الامة واداة لرسم مشخصاتها ، بل هو حشد رائع من اللوحات الفنية التي تنعكس على الوانها مباهج الوطن بأرضه وسمائه ، بجباله وأوديته ، بأنهره وبحيراته بأكواخه وقصوره ، بهوائه ومائه ، وبكل ما يربط الانسان بالارض التي انبتته والسماء التي اظلته ..

لا اريد ان استرسل في وصف الدور الخطير الذى يلعبه الادب القومي في حياة الامم . فقد مررت بهذه الكلمة استطراداً في معرض كلامي عن النزعات القومية في ادبنا المعاصر .. والذي اريد ان اشير اليه في ختام هذا البحث ، ان النزعات القومية في ادبنا ، قد بدأت ، كما قلت ، منذ بداية القرن التاسع عشر ، ولا تزال حتى

يومنا هذا، ذلك لان الامة العربية ما تزال، كما قلت، في نضال مستمر مع الامم ذوات النزعات الاستعمارية .. وبديهي ان تكثر، نتيجة لذلك، النزعات القومية، وقد مرّت الامة العربية خلال منتصف القرن العشرين باحداث جسام، منذ كان مصيرها مرتبطاً بالامبراطورية العثمانية الى ان شبّ النزاع قوياً بين العرب والترك، الى اندلاع الثورة العربية من بطاح مكة، الى تقسيم البلاد العربية الى مناطق نفوذ افرنسية وانكليزية، الى هذه الثورات التي نشبت في مصر وفلسطين والشام والعراق ضد الغاصبين - كل هذه الاحداث القومية قد قد اثارت شعور الكتاب، وقرائح الشعراء بصورة خاصة، فراحوا يعبّرون عن هذه الاحاسيس تعبيراً

صادقاً هو مجموعه بعض صور الادب القومي ، وقد ظهر ذلك بارزاً قوياً في محنة فلسطين الاخيرة حتى كاد ادبنا العربي ، في هذه الفترة ، يصطبغ بهذا اللون الدامي الذي عرفه الادب العربي قبل خمسمئة سنة عندما اضاع العرب الأندلس ـ ذلك الفردوس المفقود الذي بكيناه بالدم الاحمر !.

نعم ، ويضيق المجال لو رحت أرمز الى هذه النزعات ، وهي كثيرة في شعر الشعراء ، وادب الادباء ، ومقالات الكتاب ، وبحوث المفكرين ، وحتى في كتب بعض المؤلفين .. وهي غذاء روحي لنضالنا القومي ، في هذه النهضة التي تهدف اول ما تهدف اليه ـ الى تحرير البلاد العربية سياسياً واقتصادياً واجتماعياً لتستعيد مكانتها

السامقة من جهة ، وتعمل ، من جهة ثانية ، مع الامم الحرة المخلصة لمبادئها في سبيل هناءة الشعوب التي لا ترسف في قيد الاستعمار .

ه

رسالة المعري

والعوبة دانتي

لرسالة الغفران ، كما للالعوبة الالهية ، هذه الشهرة الادبيـة التي شغلت الـكثيرين من الادباء والشعراء على مدى الاجيال . فهما أثران فذان ، يعتبرهما النقاد والمفكرون ، في طليعة الآثار الادبيـة ، ولصاحبيهما هذه المكانة السامقة التي لهوميروس وفرجيل

وشكسبير وغوت وشللر وغيرهم من شعراء الدنيا . وقد تلاقى المعرّي ودانتي ، في هذه المفازات الادبية التي خلدت اسميهما ، حتى ليحسب القارىء ان الرسالة والالعوبة أثرٌ ادبي واحد . فقد تشابهتا بالفكرة والخيال ، وفي وصف الجنة والجحيم ، ورأينا غير واحد من كبار الباحثين ، يعرضون الى تأثر دانتي بابي العلاء ، حتى ذهب بعضهم ، الى ان شاعر الطليان قد احتذى « رسالة الغفران » في « الالعوبة الالهية » . وممن عرض الى هذه الناحية ؛ وبحثها بدقةٍ واسهاب ، البحاثة اللغوي المرحوم ، قسطاكي الحمصي . في الجزء الثالث من كتابه « منهل الوراد في علم الانتقاد » ، فصل كبير ، تبلغ صفحاته المئة تقريباً ، تناول فيه هذه الناحية بكثير من

التوسع . وان قارىء هذا البحث ، ليلمس فيه سعة علم الرجل ، وقوة بداهته في النقد ، ومدى شعوره القومي ، وحرصه الشديد على صون تراثنا الفكري ، من كل عبث ٍ وانتقاص .

فقد غاص ببحثه هذا ، الى اعماق ابي العلاء ، فصوَّر فيلسوف المعرَّة تصويراً بارعاً ، كتب نشأته واخباره ، ونتفاً من نوادره ، ثم عرض الى مذهبه الفلسفي ، ونزعاته الفكرية ، وما رافق حياته من قصص وما امتاز به من علم ٍ واسع في شتى فنون الادب . كما درس ، في هذا الفصل ، حياة دانتي شاعر الطليان ، ومن تأثر به من الشعراء ، والحياة السياسية في عهده ، واستطرد من هناك الى دراسة الحياة العقلية في اوروبا ،

وكيف كانت عالة على العلوم العربية والفلسفة الاسلامية.. كل ذلك توطئة لاقرار نظريته، فكانت دراسته هذه من اوسع فصول الكتاب، ومن امتع الدراسات الادبية التي سطرتها يراعته.

ففي الصفحات الأولى من هذه الدراسة، يعطي القارئ العربي، صورة واضحة، عن رسالة الغفران، وعن خيال ابي العلاء الفذ. وهو إذ يلخص الرسالة يضع الركائز الأولى التي قامت عليها الكوميديا دانتي. وكأنه، في رسمه تصميم ابي العلاء، اراد ان يرينا المدى القريب، بين الاصل والفرع، أو بين الفكرة الاصلية التي تقوم على صرح ممرد من الخيال الخصب القوي الفذ، وبين الفكرة المنتهبة التي تعيش متقلقلة في ظلال غيرها،

وبتعبير أدق اراد الحمصي بهذا التلخيص ان يبين الفوارق الذهنية بين عبقرية ابي العلاء وبين حيل دانتي ولعبه الفني حتى ليخرج القارىء من تلاوة بحثه ، مقتنعاً بان دانتي ، قد احتذى ابا العلاء في جميع صور « رسالة الغفران » .

اما كيف وصل دانتي الى ذلك ؟ هل كان يعرف العربية ، ام ان الرسالة ترجمت الى اللاتينية ؟

قبل ان نأتي بالحجج التي اوردها العلامة الحمصي ، والتي جزم فيها بسرقة دانتي للرسالة ، نريد ان نلمع الماعاً الى مَن عرض الى هذه الناحية ليكون القارىء العربي على علم واسع بآراء الباحثين حول هذا الموضوع .

يقول محمد كرد علي : « ولكن رسالة الغفران

التي كتبها ابو العلاء ، ردا على رسالة ابن القارح ، اشبهت رواية دانتي **La divine comédie** ، وكانت من اعظم الروايات الخيالية ، الدالة على ان اعمى المعرة ، كان معلماً لنابغة ايطاليا ، في الشعر والخيال .

ويقول سليمان البستاني معرب الالياذة : ان المعري ، سبق دانتي وملتن في تخيلاتهما .

ويقول جرجي زيدان : ان ابا العلاء ، سبق دانتي وملتن ببضعة قرون ، فلا بدع ، اذا قلنا ، باقتباس هذا الفكر عنه ، ودانتي لم يظهر ، الا بعد احتكاك الافرنج بالمسلمين . والطليان اسبق الافرنج الى ذلك .

ويذهب الباحثون من المستشرقين ان دانتي قد اقتبس روايته المؤلفة من ثلاث روايات ، وهي جهنم

والمطهر والجنة ـ ولا سيما رواية جهنم ـ من رسالة الغفران ، ومنهم من شبّهها بالجنة الضائعة لملتن الشاعر الانكليزي .

فهذه بعض الآراء، التي تقول بالاقتباس والسبق والاحتذاء والتشبيه دون ان تقول بالسرقة ، التي يورد عليها العلامة الحمصي ، اكثر من برهان واحد .

يبدأ اولى حججه ، بأن دانتي لم يكن يجهل «رسالة الغفران» ، ويجزم بأنها ترجمت مع ما ترجم من آثار اسلامية خالدة ، فيتكلم باسهاب عن شيوعة رسالة الغفران ، منذ عهد مؤلفها وتداولها بين اهل المغرب ، ولا سيما اهل الأندلس وعناية بني عباد ومن حكم بعدهم من الملوك ، بجمع الكتب ، وعن استفاضة العلم

الاسلامي في اوربا المسيحية، فيورد النصوص التاريخية، ويعتمد على موسوعات العلوم الافرنسية الكبرى فينقل عنها ادقّ الآراء التي أوردتها عن مدرسة قرطبة التي طبقت شهرتها الآفاق ، وتخطّت بغاية السرعة، جبال البرينه ، وكيف ان الشمامسة والكرادلة قد اخذوا ينهلون من معينها ، ولم يتحرج البابا اكليمنضوس الخامس، من ان يصدر امره ، بتدريس العربية في مدارس باريس واكسفورد وبولونيا وسلامنك ، وما كان من وراء ذلك ، من ترجمة الكثير من الكتب العربية ، وهنا يقف بعد هذه التوطئة ليقول : « فاذا علمت ذلك كله لن يبقى في نفسك سبيل الى الشك في ترجمة رسالة الغفران، فى جملة الكتب الى اللاتينية(١).

---

(١) منهل الوراد ج٣ ص١٨٤

على انه لا يكتفي بهذا الاستطراد ، بل يوازن في الكثير من وقائع الرسالة والالعوبة ، وفي احتذاء دانتي اسلوب المعري ، فيحكم عليه بالسرقة ، وبتخلفه عن المعري في السمو والبيان . وهذا الحكم الذي يفرضه علامتنا الحمصي ، مستمدّ من تمكنه الشديد من العربية، تمكنه من الايطالية والفرنسية ، فقد قرأ نصوص الالعوبة بلغتها الاصلية وقرأها مترجمة الى الفرنسية ، وقد وازن بينها وبين الرسالة، وهو أديب وشاعر وناقد ، وهو يعرف مدى الخيال وأثره في ادب الاديب وكيف يحلّق الشاعر ، وكيف يسفّ ، وهذا الذي جعل لآرائه قيمتها في هذا الموضوع ، وقد انتهى الى ان دانتي قد وقع على ابي العلاء ولم يكتف بذلك بل جزم

بانه قصد مدرسة قرطبة ودرس العربية فيها (١). واظنه قد تفرد بهذا الرأي، ولعله قد اورده ليؤكد نظريته التي تقوم على ان دانتي لم يكتف بالاقتباس بل سرق خيال الرسالة وبعض فصولها سرقة معيبة.

على انه ككل الباحثين، الذين يحرصون على سمعتهم الادبية، لا يلبث ان يرجع عن هذه الدعوى فيقول:

«وهب انه لم يدرس العربية ـ وهو مالنا عليه غير ما تقدم من الادلة على سرقة رسالة الغفران ـ اما اوضحنا، كيف كانت تترجم كتب العلوم وآدابها من العربية الى اللاتينية، بشهادة مؤرخي تلك القرون.

---

(١) منهل الوراد ج٣ ص ١٩١

فهل يعقل ان دانتي لم يقف على كثير من الكتب ، ومن جملتها هذه الرسالة الشعرية المعاني ، وهو أشعر شعراء الطليان (١) .

ونظنه بهذا الاستطراد ، ينصف دانتي ويسير مع كبار المستشرقين الذين افترضوا هذا الافتراض ايضا.

ثم يعود فيدخل صميم الموضوع ،ويرينا كيف انتهب دانتي تصميم الرسالة وحوادثها وآراءها ، فبعد ان تكلم عن اسطورة الصعود والهبوط في الاعصر المسيحية الأولى وينقض الآراء التي تقول بان دانتي قد احتذى هذه الفكرة الميسورة لكل انسان محاكاتها لسهولتها ، مما لا حاجة له بها ، حاول ان يلتمس طرفة فكرية فذة،

(١) منهل الوراد ج٣ ص١٩٢

ليبزّ كبار الشعراء المعاصرين، فأين يلتمس هذه الفكرة؟ لقد التمسها عند ابي العلاء . نعم ، عند شاعر العرب وفيلسوفها الكبير لا عند هوميروس اشعر شعراء اليونان ولا عند فرجيل اشعر شعراء الرومان اللذين طرقا اغراضا مختلفة في جميع ميادين الشعر والخيال سوى هذا الميدان الخصب الذي طرقه شاعر العرب وفيلسوفها الفذ وهنا يقول قسطاكي حمصي : «لم يسبق لاحد ممن عرجوا - في زعمهم - على جهنم او على السماء ، ان رأى احداً من اصحابه او اعاديه او انه خاطبهم وعاتبهم وعاتبوه الا ما صوره لنا المعري في تمنياته لابن القارح ثم مشى على آثاره دانتي في العوبته . فاحتذى عين مثاله ونسج على منواله وانت تعلم ان ابا العلاء طاف بابن القارح

على الفردوس اولا ثم على جنة العفاريت ثم المطهر، ثم جهنم كما مر بك. ثم ان ابن القارح وقف في باب الجنة، يستأذن رضوان في الدخول، فطلب منه جوازاً، ولما لم يكن بيده جواز، رشاه بقصيدة لم تفعل شيئاً في نفس رضوان. ثم وقف عند السراط، واستشفع بالزهراء فأمرت احدى جواريها باجازته. اما دانتي فقد صب هذه الحكاية في القالب الآتي:

قال في اغنيته الأولى من جهنم: انه سأل فرجيل كيف كان حضوره اليه في الغابه المهلكة، وفي ذلك المقام المخيف. فأجابه فيرجيل، ان بياتريس قد استدعته من مقره، واستحلفته ان يذهب وينجد محبوبها ويسعف ملتمسه، وان شفقتها على محبوبها هي عذرها

في التماسها منه وانها وعدته بالثناء عليه، عند عودتها الى سيدها - ربها - (الاغنية الثانية من جهنم)

وفي الاغنية الثالثة يقول: ولما وصلنا - هو وفرجيل - الى ساحل ذلك البحر الجهنمي، ظهر لنا شيخ معمم - عممه الشيب - على سفينة وصاح بنا الويل لكنّ ايتها الأنفس الشريرة، لا ترجين البتة في الرجوع الى رؤية السماء، ها انا آت لاحملكن الى الشط الآخر، في منطقة الظلمات، والى وسط النيران المضطرمة والجليد الأبدي، وانت ايها الانسان الحي من هم الذين اتوا بك الى هنا؟ ابعد عن الاموات الخ.. حينئذ قال له دانتي - اي فرجيل - يا كارون لا تدافع، هكذا يريدون هناك حيث يقدرون على كل ما يريدون

فلا تسل شيئاً فوق هذا .

يقول الحمصي : اما هي قصة ابن القارح من رضوان والزهراء وجاريتها بعينها هذه ؟ هذه حكاها ابو العلاء عنه في الفردوس ودانتي يرويها بلسان فرجيل ، عما جرى لهما في جهنم ، والأسماء مختلفة فقط . وكما اجتمع ابن القارح في الفردوس ، مع جماعة من الشعراء الزنادقة ، فأن دانتي يجتمع في جهنم مع اعاظم الشعراء الوثنيين ، وهم هوميروس وهوراس واوفيد ولوكان او (لوكانس) . (١)

وفي الاغنية العاشرة ، وما بعدها من اغاني الفردوس ، تسأله بياتريس - او روح اخرى - وتلك الأرواح تظهر له دائما ، بصور نساء حسان نورانيات -

---

(١) منهل الوارد ج٣ ص٢٠٩

اتريد ان تعلم ما هي الازهار، التي تزين هذه الهالة، التي تراها حول الامرأة النورانية ـ بياتريس ـ! ثم تبدأ فتسمي له علماء ورهبانا وقديسين وشهداء باسمائهم وتقول له ان هذا استحق الفردوس بكتابه كذا، وذاك برسالته كذا.. والآخر بمؤلفات التأملات كذا، كتوما الاكويني واوغسطينوس وكراتبانس ودومنيكوس وغيرهم كثيرين... وهو عين ما ذكر في رسالة الغفران باختلاف الاسماء عن شعراء الجاهلية وفيما يأتي بعدها من الاغاني الفردوسية، يذكر شجرة تحيا بمائتها وتثمر دائما ولا يسقط ورقها اما اثمارها فارواح سعيدة كان لها شهرة على الأرض قبل ان ترتفع الى السماء والحقيقة هي شجرة ابن القارح. تنفض من الجوز

عددا لا يحصيه الا الله، تنشق كل جوزة عن اربع جوار يرقصن على ابيات الخليل .

ويزعم انه يخاطب النسر في الفردوس والنسر يجاوبه كما هو الشأن مع ابن القارح في مخاطبة الاسد وركوبه بعض دواب الجنة الى كثير من امثاله (١).

ويمضي الحمصي في ايراد الصورة تلو الصورة ، وكلها صور متشابهة تؤكد الرأي الذي طرحه ، الى ان يقول: فاذا نظر الناقد البصير بعين لا تطرفها اذيال العصبية ، وروح تجردت من دون الشعوبية قضى معنا ان الالعوبة الالهية هي بنت رسالة الغفران لا يسترها ما القاه دانتي عليها من جلابيب الظلمات وكان الأجدر

---

(١) منهل الوراد ج٣ ص٢١٣

به ان يسمي ابا العلاء قائده ومرشده لا فيرجيل وهو لا يد له في هذه الحكاية (١).

وبعد ان كشف سرقات دانتي ، مضى بنقد الالعوبة نقد باحث خبير ، وكما عاب على المعري حشو رسالته بلفظ كثير ، من غريب اللغة وعويصها فقد اخذ على دانتي هذا الاضطراب في حبك القصة ، التي تباعدت مناحيها عن الموضوع الذي قصد له المؤلف حتى بات كل واحد من هذه الاغراض ، غريبا في مكانه ، بعيدا عن بيئته ، وحتى باتت الالعوبة الالهية ، جديرة بان تسمى كناشة حكايات بيتية واخبارا بلدية ، او مجموعة شتى من الحوادث ، او كشكولا حوى معجما

(١) منهل الوراد ج٣ ص٢١٤

صغيرا ، من الأسماء المشهورة والمجهولة (١) .

اي ان علامتنا الحمصي ، جردها من طابعها الفني ، الذي تتميز به الآثار الادبية الخالدة .

* * *

ويتلاقى الحمصي بهذه النتائج ، مع غير واحد من كبار المستشرقين ، الذين عرضوا لهذا الموضوع ، ويتفق معهم ، في ان الالعوبة الالهية ، ليست من ابتكار داتني ، فقد كتب المستشرق الاسباني ، ارسين بالاسيوس ، رسالة طويلة هز بها جميع الأسس التي قامت عليها دعائم الالعوبة ، ورد اصولها لا الى رسالة الغفران كما فعل الحمصي ، بل الى نصوص واساطير

---

(١) منهل الوارد ج٣ ص٣١٥ .

اسلامية ، ويبدو في نظرياته ، اكثر حجة واقوى برهانا، من علامتنا الحمصي . ففي رسالته «علم المغيبات ـ وصف العالم الأخروي عند المسلمين وأثره في الكوميديا الالهية » ، يقيم عشرات الأدلة والنصوص الصريحة على ان محمدا الهم دانتي ـ واوحى اليه ، وان فرجيل ودانتي ، احتذيا ابن عربي وابا العلاء .

ويظهر ان المستشرق الاسباني ، اهتم لهذا الموضوع اكثر من غيره ، فقد شغلت علامتنا الحمصي النواحي الادبية ، بينا غاص المستشرق الاسباني ، الى علم المعيبات عند المسلمين ، فتبين له اثناء دراسته ، نظريات الفيلسوف الاسلامي ابن مسرة ـ الافلاطونية المحدثة والصوفية ـ ان هذه النظريات ، قد تسربت

الى فلسفة القرون الوسطى المسيحية وانها لم تقبل من اساطين المذهب الفرنسيسكاني فحسب ، بل من نفس دانتي ، الذي يزعم المؤرخون ، انه توماوي واريستطاليسي .

يقول الكاتب الافرنسي اندره بلستور : ان المستشرق الاسباني ، بينا كان يترسم آثار تلك النظريات في تآليف فيلسوف آخر ، هو ابن عربي ، اذ به يعثر ، على وصف لمعراج رمزي ، فيه شبه عجيب لمعراج دانتي وبياتريس الى منازل الجنان ، فلما نظر في هذا الرمز عن كثب بدا له انه اقتباس للمعراج المشهور ، الذي وصل فيه محمد الى عرش الله ، والذي تقدمه اسراؤه الي مناطق الجحيم ، وعارض الاسطورة الاسلامية

بالقصيد الدانتي ، فتيقن ان بناء الكوميديا الالهية ، يكاد يكون كله من صنع مهندس مسلم (١).

واكد هذا الرأي بقوله : ان في الكوميديا الالهية عناصر اخرى لا توجد الا في الاساطير العربية، بمعنى انه لا يمكن التسليم ، بان دانتي كان جاهلا من اين اخذها . (٢)

ثم يسرد المستشرق ، كل وجوه الشبه بين اساطير الكوميديا ، والصور الاخروية المبثوثة في الكتب الاسلامية ، وفي كتابي الاسراء والفتوحات المكية لمحي الدين بن عربي بصورة خاصة ، ويضيق بنا المجال ،

---

١ – آراء غربية في مسائل شرقية تعريب عمر فاخوري ص٣٧ . ٢ – نص المصدر ص٣٩

لو اردنا نقل هذه النصوص فللقارئ ان يرجع اليها في مظانها . وزبدة رأيه «ان لمتصوفة الاسلام اليد البيضاء في نشأة الكوميديا الالهية» (١).

ويظهر ان المستشرق الاسباني بالاسيوس قد وجه انظار الكثير من المستشرقين لبحث هذا الموضوع بدقة ، فقد كتب لويس غيلية ، عضو المجمع العلمي الافرنسي ، رسالة عن الكوميديا الالهية والاسلام جزم فيها ايضا ان الاداب الاسلامية ، هي المتبع الفياض الذي نهل منه شاعر الطليان (٢) ويسوق على ذلك عدة امثلة ، ولا يلبث ان يقول : «ان دانتي نظر الى قصة الاسراء

---

(١) آراء غريبة في مسائل شرقية ص٧٧ .

(٢) مجلة الثقافة المصرية عدد ١٩ ص ١٩

والمعراج حين شرع في صياغة ملحمته، فجحيم دانتي يشبه ان يكون ملعبا من الملاعب الرومانية يلي بعضها بعضا، حتى تنتهي الى اقصى درجات الجحيم، وذلك هو التصور الاسلامي لهيئة النار، هكذا تخيلها شراحهم ومفسروهم، وعلى هذا الغرار يصورها ابن عربي في كتابه عن المعراج. ورسالته الاخرى عن اسرار مكة، وكذلك ايضا تصورها ابو العلاء في رسالة الغفران.

* * *

ونقف عند هذا الحد من الاستطرادات، التي املتها علينا موازنة العلامة الحمصي عن الشاعرين. ويرى القارئ ان اتجاهات المستشرقين تخالف بعض الخلاف الناحية التي اتجه اليها العلامة الحمصي، فقد جعلوا الصور

الاسلامية هي المنبع التي استقى منها دانتي العوبته بينا جعل الحمصي هذا المنبع الثقافة العربية اولا، ورسالة الغفران ثانيا لان الرسالة بصورها واشكالها وحوادثها اقرب من تلك الاساطير والنصوص التي اعتمدها لتوسيع آفاق العوبته وكأنه اتفق مع المستشرقين على تجريد دانتي من قوة الابداع ومن عمق الخيال ولم يكتف بذلك بل اخذ على الافرنج ان يعتبروه ثالث شعراء الدنيا بينا العوبته التي قام عليها مجده الادبي مسروقة من شاعر عربي هو احق منه بهذه المكانة السامقة .

وبذلك تجلى لنا حماس علامتنا وغيرته القومية على تراث الاجداد حتى بدا حماسه القومي في هذه الدراسة اعنف من نقده الادبي . ورسالته هذه تعد من اثمن

الدراسات التي احتواها الجزء الثالث من كتابه « منهل
الوراد » بل من اوثق المصادر الادبية لدراسة الشاعرين
الفذين دانتي وابي العلاء .

مصير اللغة العربية

في المهجر الامريكي

... لنا في الامريكتين جالية كريمة رفعت اسم العرب عالياً .

كانت كتلة صغيرة فأصبحت مجموعة كبيرة وهيئات مختلفة .

عبرت البحر الى العالم الجديد خالية الوفاض لا تحمل في اطواء صدرها سوى ايمانها القوى واخلاصها الاكيد للعمل .

دخلت مغامرة وما زالت تدأب وتكد وتعمل بصمت وصبر وجلد حتى بلغت الذروة وشارفت القمة.

كان المفروض ان تذوب وان تمحي في ذلك الاوقيانوس العظيم بين صخب المادة ودويها ولكنها لم تذب ولم تمح بل صمدت للاحداث واحتفظت بالخصائص القومية التي هي شعار العربي اين اتجه وفي اية بقعة هبط.. وما زالت حتى انبثق لنا هناك، على ضفاف الهدسن والامازون، هدي جديد كثير الاشعاع، قوي النور واللمعان.

وكما نقل العرب لغتهم الى الاندلس فكان لنا من وراء فتحهم هذا الادب الاندلسي النضير فقد حمل المغتربون معهم لغتهم فكان لنا هذا «الادب المهجري»

الذي يحلو للكثيرين ان يطلقوا عليه «الادب الاندلسي» اطلاقهم «الاندلس الجديدة» على البيئات العربية التي تكتلت في العالم الجديد، وكلها من سوريا ولبنان وفلسطين، وكوّنت عنصراً له قواه المادية والمعنوية - اطلقوا على هذه البيئات (الاندلس الجديدة) تشبيهاً بالاندلس القديمة التي فتحها العرب، وهم في تشبيههم لا ينأون كثيرا عن الحقيقة، فالفرق ان العرب « دخلوا الاندلس فاتحين ففرضوا سلطانهم ونشروا هيبتهم وحموا بسيوفهم مؤسساتهم ومعاهدهم ولغتهم فدرج العلم والادب في ظلال اعلامهم، وزها الشعر فى خمائل مجدهم، في حين ان قومنا دخلوا ارض كولومبس مسترزقين، طالبين عطفا، سائلين عدلا، اما وجه الشبه

ففي هذه الدولة الادبية التي بناها قومنا هناك شأن العرب في الاندلس ، فالاندلس الجديدة نشيئة الاديب المغترب الذي استشهد في سبيل قومه ومن اجل لغته ، زهد في كل شيء ما خلا وطنه ، وقنع بالبيئة لكي يحافظ على لسانه ، وليس الفضل ان تصون لغتك وانت قابع في ديارك وبين عشيرتك ، وانما الفضل كل الفضل ان تصونها وتحتضنها وتشقى من اجلها وانت في ديار غريبة عنك لساناً وعادة وعرفاً[1] » .

ان الاندلس الجديدة هي نشيئة الاديب المغترب ، فقد استطاع غير واحد من فحول الادباء منذ نصف قرن تقريباً ، ان يبدع ادباً جديداً ، يجمع بين النزعة الابداعية ، وان يتجه في بعض صوره اتجاهاً صوفياً او

---

(١) مجلة العصبة : حبيب مسعود

انسانياً، كان له اثره حتى في عقول الامريكيين انفسهم حين ترجمت لهم بعض نماذجه مما كتبه جبران وغيره.

وقد اقبل قراء الادب في مختلف الاقطار العربية يقرأون هذا الادب فيجدون صوراً جديدة في منازعه واتجاهاته، وحين اطلقوا عليه صفة «الادب الاندلسي» ارادوا من ذلك رقته وجزالته وتصويره للخوالج النفسية والنبضات الحسية والنوازع العاطفية، وقد تلقاه القدماء كأدب هزيل لا يمت الى العربية بصلة، واخذوا ينقدونه نقداً يتناول المبنى اكثر من المعنى، والعرض اكثر من الجوهر، وبالرغم من ذلك فقد عاش في قلوب القراء وفي أخيلتهم لانه صدى لما هجست به نفوس طائفة من الموهوبين ابدعوا اجمل القصص الوجدي،

وأروع القصائد الحية ، وأمتع التأملات الفلسفية ، ولم يقف انتاجهم عند هذا المحصول الادبي الذي ازدانت به مجتمعاتهم بل ألفوا عشرات الكتب في مختلف المباحث وأصدروا الصحف والمجلات ، وبذلك كوّنوا للعربية مقاما عظيما ، الى جانب عشرات اللغات المتباينة التي تعيش في امريكا .

* * *

لادب المهجر لونه الخاص به ، فهو لون رائع الصور ، لا يمكن لاحد ان ينكر جماله الا من كان ذوقه من فهم الادب الخبل والسقام . على ان هذه الهنات التي تعتور اسلوبه ، وتمس احيانا بعض تعابيره ، مردها ، على ما اعتقد ، الى هجرة المغتربين لتلك الاوطان في فترة كانت الاساليب العربية نفسها تشكو

العلل والسقم ، ثم بعدهم عن المواطن العربية واندماجهم في الحياة الامريكية .. وبالرغم من هذه الهنات التي يشير اليها النقاد فقد ظل ادب المهجر ذا شخصية مستقلة بنازعه واتجاهاته وصوره وتلاوينه - اريد الادب الذي ابدعه جبران والريحاني ونعيمه وابو ماضي وغيرهم وغيرهم من الذين انتظمتهم «الرابطة القلمية» في فترة من الزمن ، وهو بشخصيته المستقلة كان ادباً احتل مكانته الرفيعة بين ادبنا الحاضر لا يزال اثره قوياً في نفوس الناشئة تلتهمه كلون جديد من الوان الادب الرفيع .

واتساءل : وقد يتساءل القارئ ، اين هو انتاج «الرابطة القلمية» ؟ ويؤلمني ان اقول ان انتاجها قد وقف او كاد لو لا هذه التأملات الفلسفية التي يرسلها ناسك

الشخروب ميخائيل نعيمه ، والشاعر الفيلسوف ايليا ابو ماضي الذي اجتذبته الصحافه الى رحابها ، وصيحات من بعض ادباء عاشوا مع جبران في ظلال الرابطة . ولا اريد ان اقول ان صوت الادب في امريكا الشمالية قد خفت ، وان صفحته قد طويت ، وان شعلته قد خمدت بخمود شعلة «الرابطة القلمية» . . لا . . فلا يزال هناك ادباء وصحفيون ومفكرون وشعراء ينظمون شعراً ، ويكتبون نثرا ، ويبدعون في شتى ميادين الفكر ، ولكنه ادب ضعيف رخو غلبت عليه النزعة المادية ولم يعد يشع بتلك النزعة المثالية التي يتميز بها ادب جبران مثلا. اي لم نعد نسمع بعد انفراط عقد «الرابطة القلمية» تلك الاهازيج التي كان يرسلها جبران والريحاني ونعيمه

والدرويش وعريضه، ولا تلك الدراسات القيمة التي كان يحاولها ادباء جريئون تحرروا من مواضعات الرياء والمداهنة ـ داء الادب الوبيل !

ان ادب المهجر قد انتقل من الشمال الى الجنوب الى البرازيل ، فقد قام هناك نفر من الادباء والشعراء اتسموا بحرية الفكر وبحب الادب ، بينهم اللغوي المدقق ، والشاعر المنطلق في الاجواء ، والمنشىء الناصع الديباجة واسسوا رابطة ادبية اطلقوا عليها اسم «العصبة الاندلسية» وأصدروا مجلة تنطق باسمهم وتكون مرآة لادبهم وصورة لنزعاتهم التحررية وأطلقوا عليها اسم «العصبة» وقد سلخت الى الآن عشر سنوات من حياتها المديدة ، وهي تقوم بعمل جبار ، وكأنها قد حملت عن

«الرابطة القلمية» عبء التراث الادبي في المهجر. والادب العربي في البرازيل الآن، كما يقول عميد العصبة، بين مدّ وجزر، وقد تنازعته عوامل البقاء والفناء مراراً.. ولد فقيراً بين حفنة من البشر نزحت عن وطنها طلبا للرزق.. ودرج هزيلا لسوء غذائه المادي والادبي، وشب نشيطا يجري في عروقه دم استمده من قافلة ادبية جديدة لحقت بالقافلة الاولى، وتعطف عليه بيئة ارتفع مستواها العقلي وباتت تتذوق الادب وتقبل على جيده، وقد دخل اليوم في طور كهولته فأينعت ثماره وطاب شرابه..

ولكن ما بعد الكهولة؟

هذا ما لا نريد ان نتوقع حدوثه؟ فالواقع، ان

«العصبةالاندلسية»في البرازيل تقوم بحمل رسالةالادب وتراث العرب بامانة واخلاص ، ولا نكران انها اليوم في اوج حماسها تضطلع بحمل هذا التراث الادبي الذي اصبح جزءاً متمماً لادبنا المعاصر . وكل ما نرجوه ان يظل هذا الحماس مضطرم الاوار والا يصبح مصير «العصبة» غدا ـ لا سمح الله ـ كمصير «الرابطة» بالامس..

***

ان «العصبة» تقوم الآن على انتاج ادباء حملوا شعلة الادب بين جوانحهم قبل ان ينزحوا عن هذه الاوطان ، وقد ظلت هذه الشعلة تضطرم وهم في تلك المهاجر البعيدة ، بل زادها الحنين الى الوطن وهجاً ونوراً والتماعا .. ولكن ما مصير الادب غدا اذا آل امره الى ابنائهم واحفادهم ؟.. ويتلقى اولادهم في المدرسة والمجتمع ،

لغة غير لغة آبائهم واجدادهم .. لا شك ان «التأمرك» سيلعب دوره بقوة في نفوس هؤلاء الاطفال الذين ستنقطع صلتهم لا بالادب العربي فحسب بل باللغة العربية التي لن يعرفوا منها غير كلمات يرطنون بها دون ان يكتبوا بها . واذا هزّت «آلهة الشعر» بعض الافئدة لكتابة قصيدة او مسرحية ، واذا اراد واحد منهم ان يؤلف في موضوع اجتماعي او علمي كانت لغته الانكليزية او البرتغالية لا لغة آبائه وأجداده !

وقد اخذ ادباء المهجر يشيرون الى الخطر الذي يتهدد العربية بل لم يتردد بعضهم ان يذكر كلمة «الاضمحلال» في معرض حديثه عن الادب العربي في امريكا .

يقول احد شعراء المهجر «ما نحن من المتشائمين، ولكنها

الحقيقة . فكيف نصدف عنها وان آلمت . ان الأدب العربي في المهاجر الامريكية صائر الى الاضمحلال » .

وقد أشار الى هـذا صاحب الهـدى المرحوم الأستاذ مكرزل بقوله :

« ماصدور الصحف باللغـة العربية في المهاجر الامريكية الا لأن من المهاجر الاول ، من متكلمي هذه اللغة ، عدداً وافياً للقيام بأود هذه الصحف ، وما وجود هذا العدد الوافي الا لحداثة مهاجرتنا نسبياً ..اما بانقراض الجيل الاول من المهاجرين فالصحف مقضي عليها حتما بالزوال وان كابر في انكار هذه الحقيقة نفر من المدفوعين بالعاطفة اكثر منهم بالمنطق » !

ان البيئة الامريكية والمـدارس الامريكية

تحتضن ابناء المهاجرين وتلقنهم لغتها وعقليتها ونزعاتها وعاداتها فما يكاد هؤلاء الاطفال يترعرعون ويثبون ويدخلون غمار الحياة ويتسلمون هـذه المتاجر الكبيرة والمصانع الضخمة والاعمال الواسعة التي اسسها آباؤهم واجدادهم حتى يكونوا قد اصبحوا « امريكيين » روحاً وفكراً وقلباً وقد قطعوا علاقتهم بلغتهم ووطنهم الا بقايا حنين قد يذكرونه بالمناسبات الطارئة ، قومية او دينية، ثم لا يلبثون ان يعودوا الى سلطان البيئه التي احالتهم « آلات متحركة » تدور مسرعـة مع الزمن في تلك البوتقة الكبيرة التي صهرت ولا تزال تصهر، في جحيمها او نعيمهـا لا ادري ، مختلف الجماعات وشتى الثقافات !.

١٩٥٠

قلب الشاعر

قلب الشاعر :

يالهذا الكون الصغير الذي تلتقي فيه نوازع الاحلام ، وما فى عالم الاحلام من سحر وشعر .

يالهذا الفردوس الباسم الذي يسكب في نفوسنا بريق النشوة والذي يبهت انظارنا بما في جوانبه من صور ، وما في اعماقه من فيض ، وما يبعثه من نبرات حلوة

لذيذة .

فالقيثارة التي تبعث في اذن الفضاء أرق الانغام .

والصادح الغريد الذي يشدو، في سويعات السحر، اعذب الألحان .

والطبيعة الرحيمة التي تناجينا باغاريدها وتسكرنا بصمتها وهدوئها اللانهائي ...

والليل ، ومافي سكون الليل ،من وحي والهام .

والقلب الدامي الذي ينبض بحب الجمال ... كل هذه الاصوات ، بل كل هذه الصور الجميلة هل هي الا مرآة جلية لما تفيض به قلوب الشعراء كل يوم من نوازع وميول ؟..

قلب الشاعر :

يالهذا الكون المليء بالعوالم

المسحورة .. بالحب ، بالابتسام ، بالدمع ،بالحنوّ ، بالزهر ، بالاغاريد ...

هل انت ايها الخافق في صدور الشعراء الازليين أهل انت قطعة من اللحم كسائر القلوب ام عصارة حية من الشعور والاحساس ؟..

تبكي الأم وحيدها اذا ما غالته يد ظالم جبار ، ويشكو العاشق صدود محبوبته ، وتجلس الصبية الولهانة قرب الجدول تناجي من تحب ، وتنشر الوردة الحمراء عرفها ، والوردة البيضاء اريجها العطر ، والبنفسجة الزرقاء عبقها المسكر ، ويحلّق الطير في اجواء السماء ، ويجازف الانسان في كشف العوالم المجهولة والصعود الى اعلى ذروات الجوّ ، وتتناحر الافراد ، وتتصارع الجماعات ، ويلتهم القوي الضعيف تمرّ هذه الصور كل يوم كخيال

باهت من امامنا لايحرك منا أي عاطفة كمينة في الصدور حتى يمر بها الشاعر مرور الطيف بخياله ويلتهمها بشعوره واحساسه .. ولا يزال ينفخ فيها فيض روحه حتى يرسمها صورة من روائع الصور وآية خلابة نفنى نحن وتمحي العوالم وتظل هي خالدة على ممر الايام ..

قلب الشاعر :

أيها الفضاء المغمور بالاحلام... انت طوراً كهذى السماء المزينة بالنجـوم ... وطوراً كالخضم المثقل بالامواج.

يصمونك أيها الشاعر بالجنون ، ويشفقون على ما انت فيه من بؤس وشقاء ، ويريدونك ان تبسم للحياة كما يبسمون ، وأن تجازف كما يجازفون ، ويقيسون الراحة والشقاء بما في خزائنهم من فضة وذهب ، وفاتهم انهم

يكدون كالانعام بدون ان يتذوقوا طعم الحياة، ويدورون على رحى « المادية » التي تسحق شعورهم بدون تفكير!.. ليس لهم هـذا الهناء الذي ينعم به الشعراء - اولئك المجانين الذين يساهرون النجـوم ويغتسلون في أضواء القمر وينامون بين أمواج الأثير، اولئك الذين يركبون الأخطار ويذوقون الحنظل ويقتلعون بأيديهم الناعمـة الشوك والعليق ليعرفوا سر الحياة... واذ يعرفون هذا السر.. واذ يتذوقون هذه العصارة من لباب الحياة يسكبونها قطرة في فم البشرية... وهم في نفحاتهم الندية كالنحلة الـتي تمتص عبق الازهـار لتنفثه عسلاً ذائق الطعم شهيه!.

قلب الشاعر :

يالهـذا الفـيض الذي يشع انوار الخلود

وعدّ الأجيال بلألآء الحكمة واضوائها المنيرة ...
يالتلك الصور البديعة التي رسمت بنثير الدموع بدم القلب .

هذا المعري : شيخ فلاسفة شعراء العرب ، لقد اتسع قلبه لفيض الألهام فرسم الكون بشروره وآثامه وبما في طبيعة الانسان من حقد وضغينة ، وخبث وأنانية حالكة السواد .. وأرانا الى جانب ذلك ، نعيم الجنة وجحيم جهنم في « رسالة الغفران » .

واتسع قلب « دانتي » للجحيم والنعيم والمطهر فأبرزها صوراً تشع بالنار اللاهبة والنور الأزلي المضيء ...

وكلاهما قد خبر العالم ورأيا ببصيرتهما النافذة ، المنظور وغير المنظور ، فارسلا هذه الصور آيات خلدت مع الأجيال.

وهذا « كوته » شاعر الالمان الفذ ، لقد صهر الحب

قلبه فكتب « الآم فرتر » وهي نزيف دم قلب احب حتى احترق ... كما كتب « فاوست » تلك الرواية الخالدة ، فأرانا عوالم جديدة في كل سطر من سطورها ، وفي كل كلمة من كلماتها ...

والخيام .. ذلك الشاعر الصوفي الذى باع الكون ومافيه من شرور ومتاعب وأهوال برغيف خبز وزجاجة خمر وأرض مزدهرة بالاعشاب والازهار الحالمة ..

واناتول فرانس .. هذا الكاتب الساخر الذي يكتب احيانا بلغة الشعراء .. بماذا فاض قلبه ؟ لقد فاض بالحكمة والسخرية ، بالهزل والجد ، بالابتسام الحلو والعبوس المر ، بالشك واليقين ، بالالحاد والدين .. أرانا هذه الصور في كثير من قصصه : في « تاييس » في « الزنبقة الحمراء » ... في ملامح تلك الباريسية الرشيقة التي كانت كيفما التفتت ، في غدواتها وروحاتها

في الليل والنهار ، في الحدائق والقصور البعيدة عن ضجيج باريس — كانت في مغامراتها تلك لا تصطدم إلا بموجات عنيفة من الحب العاصف كهدير البحر، ولكن هذه الموجات لم تكن إلا لتجدد قواها وتبعث فيها المرح والنشوة ، شأنها شأن ذلك الشاب المتعب الذي يغتسل بالماء البارد ويتطيّب بالعطر في أيام الهجير المحرقة .. وكان الرجل ، رجل « الزنبقة الحمراء » يحترق من الغيرة ويتلظى على أتون من نيران الاحزان.. لا لشيء — لو علم — الا لانهما كه بمتاعب الحياة دون ان يعرف للحياة هذا المذاق الحلو الذي يستسيغه الشعراء . نعم ، في قلوب الشعراء هذا الفيض النوراني الذي ترتسم على أشعته هذه الصور الخلابة التي تزهو على المال وعلى ما في الجاه

الكاذب من قوة وجبروت ..

* * *

يهمس الموت في آذاننا ، كل يوم بأن المال يفنى وان الحياة اذا ماقسناها بعمر الكون ـ ليست الادقائق معدودة .. اي وربي ، ان المال ليذوب ، وان صاحب المال ليصبح أثراً بعد عين ولكن الصور الفكرية التي ترسمها قلوب الشعراء لتزدان بها السماء والفضاء والارض ـ إن هذه الصور تظل في روعتها وجمالها ما كرّ الجديدان وتعاقب الملوان ..

قلب الشاعر :

ايها الفضاء المليء بالاحلام المسحورة

ايها الباسم لهناء الكون ونعيمه
ايها الخافق الباكي لمضض البشريةوأوجاعها
ايها المتعش ليقظة الحب
ايها النائم في ظل الاحلام
ايها الراقص في غلائل الشفق
ايها العاصف كالرعد
ايها المغمور بالزهر والورد والياسمين
ايها الساجد في محراب الجمال
ليت لكل واحد منا ، هذا القلب الفياض
بأرق العواطف وأدقّ النوازع والاحاسيس ..

نعم ، ليت لنا ولاولئك الذين بيدهم تسيير

دفة الكون هذا القلب الذي يخفق في صدور الشعراء
الأزليين ... إذن، لكانت البشرية في هناء وأمان ولما
ارتسمت في سماء الكون هذه السحب الدكناء التي
تقذف الحديد والنار وتغمر وجه البشرية بالشرور والآثام.

١٩٢٦

الأخطل الصغير (١)

ليس في هذا الوجود أسمى من الفكر

وليس أخلد من تراث العباقرة ..

. . .

والشعر صورة من صور الفكر .. وهو في مجموعه بعض هذا التراث الانساني الذي تفخر به البشرية على

---

(١) القيت هذه الكلمة بمناسبة الاحتفال بتكريم الاستاذ بشارة الخوري في حلب سنة ٩٣٥.

سائر الفنون ..

. . .

سألني سائل فيم الحفاوة بالشعر في هذا العصر المادي ودويّ الآلات وأزيز المدافع والطيارات يصم الآذان عن سماع الأنغام العلوية التي تنبثق من نفوس الشعراء ...

أجبته : ان النفوس الشاعرة لا تستطيع ان تصامم عن سماع الشعر الحي .. والناس فريقان شاعر وغير شاعر .. ولا أريد بشاعرية الانسان هذه الكلمات المرصوفة والمقاطع المنظومة بل أريد شاعريته التي تتصل اتصالاً مباشراً بالحياة والكون فيحنّ ويحب ويشكو ويهجر ويتألم ويفرح ويعبس ويبتسم .. وهذه نزعات

لاعلاقة لها بمواضعات اللغة وأوزان الخليل .. ومن عمر قلبه بهذه النزعات الانسانية فهم الشاعر فهماً مباشراً واتصل به اتصالاً وثيقاً ولو ارتفع بشعره عن المفهوم، وغاص بخياله الى الاعماق او ارتفع الى السماوات ..

. . .

يقول بعضهم ان الشعر لايزال من صور البداوة وان الشعراء يهزجون هذه الاهازيج البدائية التي تمس العاطفة والشعور دون العقل والفكر .. وينتهون من ذلك الى أن الشعر لايزال قديم الاتجاه .. وان شعراءنا يستوحون الالهام من القدم وان الذين ينظرون الى المستقبل قليلون .. واحب ان اتساءل لم لا يستوحي شعراؤنا الالهام من الطبيعة والنفس الانسانية .. وهما

اعم واوسع وأخصب من الماضي والمستقبل معاً ..

. . .

ليس الكون إلا قصيدة خالدة .. والشاعر الحق هو الذي يستطيع ان يرسم صور هذه القصيدة الكبرى بشعر صادق ونفس صافية الشعور ..

. . .

لقد صدق شيلي حين نعت الشعراء بأنهم شراح الالهام الآلي .. فهم ، في الواقع يرتفعون عن البشر ليفهموا حقيقة البشر .. ولكي نفهم الشعر على حقيقته - وأريد الشعر الحي دائماً - يعوزنا هذا الاستئناس بروح الشاعر والاقتراب من فيضها العلوي ..

. . .

الشعر صورة للحق والحب والجمال .. فمن لامس الحب شعاع نفسه وغمرته اضواء الجمال فهم الشعر على حقيقته العليا .

. . .

لست أفهم الشعر إلا أنه صنو الجمال .. وإطار يضم فى دائرته بعض الوان الحس ..

فمن نغمٍ مشجٍ ، الى أنشودةٍ مطربة .. الى نبراتٍ صافية .. الى شعور عميق . الى فكرة يقظة .. الى انسانية سامية ..

. . .

ما من شاعر الا وفي حياته رواية أزلية .. تبدأ بالحب والاحلام .. وتتأرجح بالشكوك والقلق ..

وتنتهي بالفلسفة المؤمنة ..

. . .

النضال والتمرد والعنف .. الحب والألم .. الوجد والشوق .. الاماني والاحلام .. هي مقاطع من قصيدة الشاعر الكبرى .

. . .

وبعد

فحلم الشاعر هو يقظة الحياة .

. . .

هذه خواطر في الشعر والشعراء أقدم بها كلمتي عن الأخطل الصغير - الشاعر الكبير بشارة الخوري الذي حمل لواء الشعر اللبناني منذ عشرين عاما او اكثر ولا يزال ، وكانت صحيفته « البرق » صورة لهمسات

الادباء ونفحات الشعراء .. ثم جاءت الحرب الكبرى بويلاتها، ثم طغت السياسة على الأدب فغاص في عبابها وصارع أمواجها ومازال حتى تعب وأنهكه الصراع فآثر ان يرجع كما بدأ .. آثر أن يكون في حمى الأدب يستظل ظلاله ويعب من سلسبيله .. وانزوى يرقب صراع الناس ويشهد كفاح الوطن .. يستمع دقات القلوب وأنات النفوس فيرسم هذه النزوات بمقطوعات تغني عن قصائد، وبقصائد تغني عن دواوين، وبشعر مليء بالحس والعاطفة والدمع والأنين ..

. . .

لقدم الأخطل الصغير بثلاث مراحل من حياته الأدبية في عالم الشعر .. أي شعره قبل الحرب

العامة .. وخلالها .. وبعد الحرب حتى يومنا هذا ..

وشعره قبل الحرب هو شعر النكتة المستملحة والتورية الجميلة وهذه المناسبات التي تدفع الشاعر ان يصف «غمزات الملاح وخدود الحسان وان يشبه النهد بالثمر، والثغر بالدرر، واللحظ بالنبال، والمحبوب بالغزال».. وهو شعر تقليدي اكثر منه عاطفي .. لأن طبيعة الأدب العربي في تلك الفترة من الزمن كانت ترتكز على دنيا البديع .. والشاعر الذي يفر من التورية والتشبيه هو شاعر مغمور الأسم ..

ولاشك ان شاعرنا كان يضيق بذلك الأفق الموبوء بأدب الرخاوة والتخنث .. ودليلي شاعريته -

الانسانية خلال الحرب وشاعريته المتمردة بعد الحرب الكبرى ...

. . .

جاءت الحرب بويلاتها .. وعصفت المجاعة بلبنان الأشم وكان الموت يحصد الناس حصداً من ألم الجوع.. وطبيعي ان تهز هذه الفواجع قلب الشاعر .. وان تهز «الأخطل الصغير» اكثر من غيره .. فوصف هذه المشاهد .. ولكنه لم يصفها هذا الوصف الباهت .. لأن الشاعر الملهم يعمد دائماً الى الفن فيستوحيه .. وقد أوحى اليه ان يرسم قصة تلك اللبنانية التي صرعها الجوع وصرع ابنتها — وزوجها فى ميدان القتال — فاضطرت ان تطرق الأبواب مستجدية ، وساقها القدر

الى شاب من الموسرين لم يرحم جوعها بل مهد لها طريق الغواية ومازال حتى جادت له بأثمن ماتملكه .. جادت له بعفافها في سبيل طفلتها الوحيدة التي تقاسي آلاماً موجعة من عذاب الفاقة وضنك الجوع .. غامرت المرأة بعرضها في سبيل « ريال » لم تكد تقبضه بنفس ملتاعة وقلب كسير حتى هرعت الى المطعم تبتاع بعض مايردّ رمق الحياة الى فتاتها .. ولشدّ ما كانت صدمتها عظيمة حين صرخ البائع في وجهها: ان ريالك مزيف ايتها الأخت!..

ووصف « الأخطل الصغير » في هذه القصيدة ـ « قصيدة الريال المزيف » وفي غيرها ويلات الحرب وبكاء الانسانية وصفاً مؤثراً .. وما اصدقه حين يقول:

انها الحرب ولم تترك على سطحها الا رسوماً بالية

ونفوساً حوّما حول البلى   تتمشى في صدور خالية
تشتكي الجوع وتقرى العللا   عجباً منها جياعاً قارية

لقد ذهبت الحرب بويلاتها .. ونسي الناس ما مرّ بالبشرية من شقاء وبؤس ولكن بقي شعر « الأخطل الصغير » صورة واضحة الالوان والأصباغ لتلك الأيام السوداء .

. . .

مرّ بشارة الخوري بهذين الدورين .. وقد صقلت الاحداث قلبه فكوّنت منه شاعراً جديداً أخذ يطل علينا ، بعد الحرب العامة ، بروائعه .. لقدبدأ يستوحي حسّه العميق ويستوحي ذكرياته ويستوحي السنون التي تصرّمت من حياته وينفح العربية بآيات من

الشعر تهزّ القلب وتستثير العاطفة معاً ..

. . .

ان من يقرأ قصيدته « عمر ونعم » وقصيدته « عروة وعفراء » ويمعن بقراءتهما ينتقل حالا الى تلك الاجواء التي يخلو فيها العشاق الى بعضهم دون رقيب .. الى هذا الحب العذري - الذي وصفه الشعراء العذريون وصفا بليغاً ليس أروع من وصف شاعر لبنان الذي يقول:

بلد الهوى العذري وهو كناية
عن حب اشرف مجمع انساني
يتعانق الروحان فيك صبابة
ويعف ان يتعانق الجسدان
فاذا سمعت بعاشقين فقل هما

ما كان متصلان منفصلان

ولا أعلم أيتحدث شاعرنا في هذه القصيدة عن «عفراء »ه ، اي عن نزوات حبه أم أحب هذه الصور القديمة فأزال عنها الغبار ووشاها بحسه العميق وشعره الأنيق .. هذا ما نريد ان نعلمه ، لأن الأدب الجديد لم يعد يحتمل هذه الحجب السميكة بين الشاعر وحقيقته ..

...

ان من يمعن النظر في بعض مقاطع « الأخطل الصغير » يحكم لاول وهلة بأن هذا الشاعر قد آمن بحقيقتين : آمن بالشعر وآمن بالحياة معاً .. وهما جناحان قويان لتحليق الشاعر في أجواء الفضاء .. ولا أدل على ذلك من هزئه بأعظم دولة في الكون .. نعم ، ان هذا الشاعر الذي

كوّن من الحس والألم - يهزأ استكباراً بدولة الجمال.. بهذه الدولة التي تعنو لسلطانها القلوب دون ان يخشى غضب ربات الجمال..

ما الحسن لولا الشعر الا زهرة
يلهو بها في لحظتين النظر
لكنها إن ادركتها رقة
من شاعر او دمعة تنحدر
سالت دماء الخلد من اوراقها
ونام تحت قدميها القدر

وأقسم انني ماقرأت لشاعر يعتز بدولة الشعر كما اعتز بها الأخطل الصغير بهذه الأبيات الثلاثة ..وهذا هو الايمان بالشعر والفن معاً.. ولكن شاعرنا الذي

يرسم بهذه السطور مكانة الشعر السامقة من الحياة يعود فيتساءل ماقيمة الحياة اذا لم نتمتع بأزاهيرها الشذية وعبقها الفياح، وهذه جماع الفلسفة الباسمة ـ اذا صحّ لي هذا التعبير ـ .

حكمة الدهر ان نعيش سكارى
فاجمعا لي الكؤوس والأوتارا ..
واجلواها دنيا ممتعة الحسن
كما تجلوان احدى العذارى
انهب العيش لاابالك نهبا
واطرح عنك وجهك المستعارا
لست مهما عمرت غير جناح
حط في الدوح لحظة ثم طارا

او خيال بدا على الرقعة البيـ ضاء للناظرين ثم توارى

ان بشارة الخوري ، الشاعر العاطفي الملهم الذي ناجى الجدول والزهر والنجوم والذي أنّ انات موجعة في الحرب الكبرى ولم تكد تستيقظ احلامه بعدها حتى بكى « الهوى والشباب والأمل المنشود » .. هذا الشاعر المصوّر الذي يسمعك نواح الثكالى وبكاء المحبين ينتفض الآن هذه الانتفاضة القوية ليصور انات الوطن وامجاد العرب بشعر كله موسيقى وكله شمم واباء .. يذكر لبنان ويذكر سورية ويذكر مصر والعراق وكأني به يلتمس زاد شاعريته من هذه النزعات القومية العارمة واذا سئل مالشاعر الدمع والنجوم قد انقلب هذا المنقلب اجابك ونفسه مطمئنة :

يريدون ان نكتب لهم شيئاً في الأدب وهم يعنون بعض المقاطع في الغزل والوصف وهو ضرب من الغزل الأبيض ينبت في تربة السلم والرخاء وينمو في ظل الحرية والاخاء .. فلا نكاد نحاول حتى تصطدم بقصائد حافلة من الأدب الأحمر ينظمها غاندي واتباعه في الهند، وسعد واخوانه في مصر، كما نظمها الفرنسيون في ثورتهم يوم علقوا قصيدة حمراء في كل شارع وعلى كل جدار، وفي رأس كل حربة، وكما ينظمها كل شعب «شاعر» يستمد من دمه حبراً لكتابة القصائد الخالدة - قصائد النخوة والاخاء والحرية ويتساءل شاعرنا ماقيمة الأدب الأبيض إذن .. ذلك الأدب الساكن، الهادىء يرسله العشاق انات متقطعة أثر حبيب هاجر، وغزال

نافر اذا قيس بالأدب الأحمر يطلقه الثائرون للعدل والحرية من صدورهم شرراً يبري المناصل وتكتسح المعاقل .. ماهي قيمة هذه النغمات توقّع على الأوتار بين الكأس والزهر اذا قيست بضربات المطارق تحطم القيود عن الأعناق ، وهتاف الجماهير يدك حصون الظلم والاستبداد .. واذا يتساءل هذا السؤال ينتهي الى ان كلاً من الأدب الأبيض والأدب الأحمر متلازمان لاينمو ذاك اذا لم يمهد له هذا .. وان الشعوب التي لاتغني بقصائدها الحمر لاتستحق لها قصائدها البيض !

هذا هو رأيه في منحى الأدب .. وهو لهذا قد هجر تلك الألوان الانسانية ليصف منازع الشعوب العربية في نضالها القومي ، ويالله ما ابلغ ابا عبد الله وهو

يشير الى الوعود المعسولة بقوله :

الأمـاني التي افـترت لنا

بدّلت ابيضها الزاهي بنقس

والجراحات الـتي نحملهـا

بسمات الهزء من آمال أمس

كم حشوا اذناً بوعد كاذب

مثلما يحشى فم الميت برس

ورأينـا حمـلا لكـنما

كشف التجريب عن اهرت طلس

نكبوا « المصلوب » في موطنه

ورموا خمسته القرحي بخمس

زعموا انقاذه حتي اذا

زغرد الناقوس باعوه بفلس

هذه هي المراحل الثلاث التي مر بها «الأخطل الصغير» .. وقد كان في كل مرحلة من مراحل حياته الشاعر المصور ، الدقيق الحس ، الموسيقي النغم ، الأنيق اللفظ ، وهذا الذي يجعل له هذه المكانة العليا بين شعراء العربية المعاصرين .

١٩٣٥

الشعر والاحلام

في جلسة هادئة ، ومع شاعر شاب يمتاز بصفاء التفكير وروعة الأحلام اخذ يحدثني عن اتجاه جديد في الأدب بعد ان انكر هذا الطنين الداوي الذي يقوم عليه ادب اللفظ والصياغة والتزويق الذي تقرأه فتشعر بشيء يهز سمعك دون ان يمس نفسك ويريك هذه الصور الجميلة لما تحسه وتشعره، وصديقي الشاعر يكتب بالافرنسية ، واذا حاول ان يرسم اهتزازات نفسه

بالعربية التمس لها رداء غير فضفاض .. رداء يوائم ظل الصورة وروح الفكرة . نعم ، التمس لها هذا الرداء عند اصدقائه الذين يكتبون العربية ويجيدون كتابتها نظماً ونثراً ، وكثيراً ما يأتونه بتعابير بعيدة جد البعد عن روح القصيدة وكأنهم يهيئون له ـ او للقصيدة ـ عباءة وسروالا وعمة .. ولمن ؟ .. لفتاة باريسية متأنقة . في الواقع ، أن جمال الفتاة لن يغيب في العباءة والسروال والعمة .. وقد تبدو اجمل مما هي في هذا الزي الجديد .. ولكن رجال الفن المخلصين لفنهم ينكرون هذا العبث ويقولون لك انه جمال مشوه عمره عمر الورد ، قد لا يمضي عليه يوم الا ويعتريه الذبول ، وذبوله من فقدان التناسق والانسجام . التناسب في الجمال والوحدة في القصيدة امران متلازمان ! ..

قال صديقي : — ولم اشرح بعد فكرته الجديدة — اني لأتهم العربية بضيق اللفظ وكثرة التعابير وهي التي وسعت كتاب الله لفظاً وغاية — على حد قول حافظ ابراهيم ولا أنكر — من جهة ثانية — ان الترجمة الصادقة — في الشعر — ضرب من المحال .. ولكن — وثقافتي من دراسة العربية محدودة — أقف مبهوتاً حين اريد ان انقل قطعة من شعري الى العربية فلا أجد الكلمات المماثلة للغة الشعر بالافرنسية ، ثم تلا قطعة من شعره وقال :

ان الفكرة واضحة ، كما ترى ، واني ارمز فيها الى أشياء قد لا يلمسها القارىء في بيت واحد أو بيتين ، لأن الشعر عندي — ليس ضرباً من الموعظة والحكمة حتى تلمس

قـوته فى شطر أو بيت ، الشعر في روح القصيدة ، في الاثر الذي يتركه في النفس ، في عمقه وشموله ،في بعده عن التزويق والطنين ، في ان لا تكثر فيه الاصباغ المتنافرة، في أن يكون صورة حية للعاطفة والحس الدقيق، في بـكاء الطفل وعطف الأم، في انسانية الرجـل ، في صراخ شعب، في قمع ظلم ، في بسط عدل ، في موسيقى صامتة ، في وحدة هادئة ، في حلم أزلي ، في حب مبرح.. في كل ذلك تجمعه فكرة صافية تنحدر من قلب شاعر عميق الخيال آمن بالفن وآمن بالأدب ايمان المؤمن الصادق بالله وملائكته ورسله ..وإذا لم نهدم أيها الصديق هذه البيوت المفككة وهـذا الاضطراب الذي يخل وحدة القصيدة ، فان الشعر العربي سيظل نوعاً من

المذرولونا من الثرثرة .. يستثير ايدي السواد في الحفلات العامه فتصفق وتصفق دون ان يكون للفكر اثر في هذا التصفيق ! ..

قال صديقي : اني ادعو ، واريدك ان تدعو معي الى خلق « الوحدة » في القصيدة العربية ، اي ان تكون الصورة ذات ألوان متناسقة وان لا يزول اثرها في نفسك في التو والساعة بل يظل مع الايام ، عليك ان تذكر هذا الاثر ولو بعد عشرين عاما مثلا لان الاثر الصادق في النفس لا يزول ابداً بل تظل اشباحه تتراقص امامك كلما تقادم عليها العهد ..

واردف صديقي يقول : لا اعلم اذا كنت حدثتك عن ذينك الشابين وقد اخذا يشيدان بجمال قصيدة لشاعر

معاصر — ولا انكر على الشاعر قيمته الفنية واثره في تجديد الشعر — ولكن اردت ان افحص مدى تفهم هذين الشابين لحقيقة الشعر ولهذا اللون من الاعجاب. فأخذت القصيدة منهما ورجوتهما ان يحدثاني عن اثرها في نفسيهما فوقفا مبهوتين وطلبا ان يقرآها مرة ثانية وكانا قد سمعاها من الشاعر اكثر من مرة وتلواها مرات — ومع ذلك اعدت اليهما القصيدة فقرآها بامعان وكانت النتيجة انهما وقفا وقفتهما الاولى.

لست في هـذه القصة انتقص الشاعر وهو اكثر شعرائنا المحدثين مراعاة لوحدة القصيدة بل احببت ان اشير الى اولئك الذين لا يهتمون لهذه الناحية ولا يلتمسون الاثر الذي تتركه القطعه الادبية في نفوسهم

بل يكتفون بالجرس اللفظي وحسبهم من الموسيقى رنينها الداوي دون اثرها العميق الصافي . هذا ما ينكره دعاة المدرسة الحديثة الذين يدعون الى ادب الفكرة لا الى ادب الانشاء ، اي الادب الذي يترجم عن النفس البشرية ترجمة صادقة لا اثر فيه للبلاغة التي تعتمد على ضخامة اللفظ وقوة البيان. وبعد فقد اكون مهدت لآراء صديقي الشاعر دون ان اشرح هذا الاتجاه الذي يدعو اليه فلندخل الموضوع دون ان ندور حوله كثيراً .

. . .

ما الاحلام ؟ وما اثرها في النفس وفي الادب ؟

يقول النفسانيون وعلى رأسهم فرويد وامثاله : الحلم ظاهرة من الظواهر النفسية المعقدة التي تستحق العناية والدقة والبحث . وانه ليس — كما يقول بعض القدماء

— اثاراً مشوشة لاضطراب الخلايا والمراكز العصبية أثناء النوم ولا بقية من بقايا النشاط العقلي الذي ضعف بانتهاء اليقظة ، ولكنه عمل عقلي خاضع لقوانين وقواعد ، فللبحث العلمي فيه مجال فسيح ، وليست دراسته مفيدة من الوجهة العلمية فحسب بل منتجة جداً من وجهة التحليل النفسي والعلاج النفساني ، وينتهون من بحثهم ودراساتهم الى نقطة دقيقة وهي ان ليست جميع الاحلام مجرد خيالات تمر وتنقضي بلا داع ولا غرض ولكنها مثل احلام اليقظة مرتبطة بحياة الانسان وتجاربه وميوله اثناء اليقظة .. ووظيفتها الى كل ذلك تحقيق الرغبات المكبوتة.

وقد تسأل ايها القارىء — واريدك ان تسأل — ما علاقة الاحلام بالادب ؟ وما لون هذا الاتجاه الادبي الذي

حدثتنا عنه ؟ وها انا احب ان اوائم بين ما قدمته وبين نظرية صديقي التي تقوم على ركام من الاحلام ! .. ولا بأس ان تتجرد ، ايها القاريء ، من عالم الحقائق وان تكون -ولو للحظة من اللحظات- شاعراً يحس احساس الشعراء..

فصديقي شاعر وحديثه حديث الشعراء، وفكرته فكرة شاعر يحيا بالاحلام اكثر مما يحيا باليقظة -والاحلام يقظتها الجميلة- وها أني انقل الى القراء نظريته التي انتهى اليها بعد دراسة طويلة للآداب الحية واطلاعه على نماذج قوية من الادب العالمي وهضمه الكثير مما كتبه الادباء الموهوبون -والشعراء الحالمون منهم بصورة خاصة- وتتلخص نظرية صديقي في اعتماده على احلامه لخلق ادب جديد ، ادب غريب عند البعض ولكنه ادب فيه سمات

الشاعرية الحقة . قال :

ان اكثر ما كتبته وما احاول ان اكتبه من شعر ـ هذه المقطوعات التي ارى فيها نفسي وأرى في بعضها الكون بمختلف صوره ..

هل تعلم ، انني في كثير من الليالي ، انتحي ناحية بعيدة واغطّ في سبات عميق وأتهيأ لأن اقتنص حلماً جميلا .. و كثيراً ما يكون هذا الحلم مادة دسمة لقصيدة اكتبها .. والشعر ، في الواقع ، هو نوع من الوحي .. لون من الغيبوبة و « اللاشعور » ، وهو عاطفي نفساني اكثر من اي شيء ، وان الشعر الذي يقوم على التفكير ليس يعد من الشعر قطعاً .

قال صديقي ، وما دام « اللاشعور » هو المنبع الثرّ

للشعر الحقيقي ، فاني احاول حين انسج خيوط نفسي في هذا الذي تسمونه قصائد - ان ارجع الى الينبوع الاصلي ، الى اللاشعور ، الى هذه الغيبوبة الهادئة ، وبكلمة ادق الى هذا العالم الجديد - عالم الاحلام الذي يفيض على ما اكتبه بعض الصفاء والهدوء الذي ينشده الشعراء الخالدون .. وحين يمر الشعر من تحت هذه القنطرة - قنطرة الاحلام - يشعر بوحدته ، وتتراءى له الخيالات ألواناً ألوانا ، ويحس بابتعاده عن ضجيج الحياة واثقالها ، عن المنطق وعن كل ما هو مادي ، عن هذه الجراثيم السامة - هذه المكروبات التي تفسد جمال الخيال ، عما يفرضه التزلف والرياء وما يتقارضه البشر من ثناء كاذب وما يشوب حياتهم من حقائق واكاذيب .. انه يخرج من هذا العالم المادي الى

تلك الآفاق العلوية الغريبة التي ترف بالخيالات ..

حين يكتب الشاعر احلامه بهذا الجو السحري ، المليء بالغرائب ، وبما هو اجمل من الاساطير، يحس ان كلماته اخذت تتلون بألوان غريبة ، بمعان جديدة ، بصورة رمزية قد يصعب فهمها في حالة اليقظة ولكنك تشعر انها موجات من الجمال ، وانك ازاء صورة من صور الطبيعة فلا ألفاظ فخمة تطغى على المعاني الناعمة ، ولا معاني مجردة من لباسها الانيق ، وكم تعجبني كلمتك - قال صديقي بعد ان اسمعني قطعة من شعره - وأنت تعلق على هذه القصيدة بأن الانسان يشعر وهو يقرأ هذا النوع من الشعر انه التصق بالكون في لياليه الهادئة ، بالبشرية في ساعات صفائها ، بالنفس الشاعرة ، بالروح الصامتة وانه

خلا - اى الشعر من هذه الترهات التي تسود اكثر شعرنا - هذا الشعر الذي اصبح ، وسيصبح نماذج مشوشة من هيا كل عظمية او كتلا صفراء من اللحم المتعفن .

قال صديقي :

ان الشعر في عصرنا هذا قد وصل الى درجة الهرم .. لقد مرّت عليه اجيال طويلة تبدّات خلالها الافهام والازواق .. ولذلك يجب ان يبعث جديداً ، ان تدخله عناصر التجديد ، ليس التجديد في الجزء بل في الاساس . واذ قلنا ان الادب في حاجة الى البعث والى اكتشاف ينابيع جديدة وحاولنا ان نبحث عن هذه الينابيع وجدناها في « الحلم » .. في هذه المادة الصافية التي تستطيع وحدها ان تفتح في عالم الادب آفاقاً جديدة ،

وبكلمة موجزة فمنطق « اللاشعور » هو اساس بعث الشعر وتجديده .

وزاد صديقي قوله :

لا شك ان ادراك هـذا النـوع من الادب صعب تناوله .. لأنه لون من الرمز ، ولا يمكن ان يكتب كل حلم بل الاحـلام المتناسقة التى تولد في جو من الوحـدة والحياة .. وهـذا اللون من الادب محـدود جـداً .. اذ لا يستطيع كل انسان ان يرى احلاماً تؤاتيه ادباً جديداً .. من ادب « اللاشعور » الى ادب صاف لا يقلقه المنطق فيستوحي مادته من صور الاحلام .. واني لأعتقـد ان ادب « ادكارپو » هو نوع من هذا الادب . في الواقع ، ان مقطوعاته كتبت في حالة اليقظـة ، ولكن اذا اردنا ان

نردها الى عناصرها الاولى رأينا ثمة تشابه بينها وبين الاحلام.

من يدرى ان لا يكون هذا الشاعر العظيم قد فكر في هذا النوع من الادب ..مع اعتقادى ان محاولاته لم تقم على « اللاشعور » والاحلام .. واذا خُلق هذا اللون من الادب الذي أعتمده فيما اكتبه من شعر .. فيكون ادكاربو خير من يمثله : ادب صاف وليد الغيبوبة واللاشعور.

قال صديقي : قد يكون شرحت لك الفكرة بايجاز دون ان اعمد الى توضيحها، وقد تكون هذه الجلسة غير مؤاتية لمثل هذه الاحاديث .قلت له : صدقت انني في شوق الى جلسة ثانية نظير هذه الجلسة التي امتدت

بنا الى اخريات الليل حيث يحلو الحديث عن الشعر والاحلام .

* * *

وصديقى لا يبتعد في نظريته هذه عما يرمي اليه العلماء النفسيون - فرويد وادلر ويونغ في مدرستهم - مدرسة التحليل النفسي ، التي لم تعد في الفلسفة والادب ..

يقول الاستاذ سلامة موسى ، اذا كانت الآداب ونظريات العمران قد تأثرت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر بنظرية « التطور » التي شرحها داروين فان الادب والفلسفة في وقتنا الحاضر يتأثران بنظريات العقل الباطن والتحليل النفسي . وأهم ما قامت به هذه المدرسة هو ان تسعة اعشار تفكيرنا يجري على غير وعي أو دراية

أي انه يجري فيما نسميه « العقـل الباطن » او « الواعيـة الخفية » حيث تحدث الاحلام في النوم، والخواطر اليقظة وان هذا العقل الباطن هو الحد الذي يقرر اخلاقنا ويرسم لنا مثلنا العليا ويكون اذواقنا وعقائدنا ويرسم لنا من حيث لا ندري خطة معينة نجري عليهـا في حياتنا . وخلاصـة « التحليل النفسي » انه يقول اننا في مظاهرنا العادية امام الناس نتخذ شكلا او نتكلف وضعاً قـد يختلف بل قـد يتناقض مع حقيقتنا وكنه نفوسنا واننا اذا اردنا ان نقف على هذا الكنه او هذه الحقيقة فيجب علينا ان نبحث عن احلامنا وخواطرنا لأنها تصدر عنا مطلقـة عفو النفس. وهذه الاحلام التي تبدو لنا خزعبلات وترهات وسخافات هي عمل طبيعي مثل اي عمـل آخر لا يمكن ان تنشأ

بلا اسباب . وهي من هذه الوجهة يمكن ان تعتبر المادة الخام للتفكير الانساني كيف ينشأ وما هو الذي يدفع اليه ثم كيف يسير وما هي طريقه ..

والحلم الى هذا ، هو الطريقة البدائية للتفكير فاذا درسنا ووقفنا منه على الدوافع والطرق عرفنا منه ايضاً تلك الدوافع التي تقرر اخلاقنا وتلك الطرق التي يتم بها تفكيرنا في حال اليقظة وللقراء ان يلتمسوا هذا الرباط الوثيق بين ما يرمي اليه صديقي الشاعر وبين هذه الآراء التي يقول بها فرود وادلر ويونغ ..

١٩٣٦

لمحة سريعة عن :

سير الحركة الادبية في سورية

خلال الحربين العالميتين ١٩١٨ - ١٩٣٩

كان الادب العربي في سورية قبل الحرب العامة - ١٩١٤- ١٩١٨م - ادب مباسطات وتورية ، ادب جناس ومطابقة ، ادب قصيدة وخطاب يتليان في حفلة عامة فيستدران الايادي بالتصفيق ، ايس عليه هذه المسحة

المثالية والنزعة التحريرية التي ينشدها ادباء الشباب في هذه السنوات التي اعقبت الحرب الكبرى (١) .. واذا استثنينا بعض لمحات صحفية وقصائد حماسية كانت تثير في نفوس الشباب الحس القومي ترديداً لهذه النزعات التي أثارها الاتراك بعد اعلان الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ ـ اذا استثنينا هذه الصيحات ـ وهي ذات لون خاص من الاتجاهات القومية ـ فالادب العربي في سورية كان ادباً ضعيفاً ، كل مادته هذه البهرجات وهذه الشعوذات التي تقوم على الصنعة والبديع او على التصوير والتوشيع ، لا يتصل ابداً بأدب الحياة .. واحسب ان سائر الاقطار العربية لم تكن احسن من سورية في هذا المضمار، فالادب

---

(١) كتب هذا البحث سنة ١٩٣٢

في مصر في تلك الفترة هو ادب القصيدة والمقال ـ قصائد شوقي وحافظ والمطران ومحرم والكاشف وهذه المقالات البيانية يكتبها المنفلوطي او يترجمها السباعي او يرسلها ولي الدين يكن لمحات ثائرة في السياسة والادب والاجتماع.

وجاءت الحرب فوقف النشاط الفكري وركدت الحياة الادبية وانقطعت هذه الصلات بين مصر وسورية، وشغل الناس عن الادب بالحرب وبهذا، الطغيان الذي فرضه الدكتاتور التركي احمد جمال باشا الذي صلب احرار العرب ونشر في البلاد جواً بغيضاً من الرعب .. وقد كانت سورية في تلك الفترة ذات احاسيس غريبة فلم يشعر السوري كالافرنسي او كالالماني مثلا انه في هذه المجزرة الكبرى يدافع عن وطن يحاول عدو ان

يمس كرامته او يسلبه اياه .. لقد كانت جزءاً من المملكة العثمانية ..وكانت تحاول ان تخرج من هذه المجموعة لتنضم الى «الوحدة العربية» التي نادى بها احرار العرب ودشنها الملك حسين بثورته الدامية .. فكان شعور السوريين من الناحية القومية يختلف عن شعور اية امــة قـد اشتبكت بحرب ، كان يتجه الشعور الى الرغبة بانتصار الحلفاء ، أي ان تنتصر انكلترا التي وعدت العرب بالحرية والاستقلال وان تنتصر معها حليفتها فرنسا على العثمانيين وعلى الالمان، نعم، كان شعور السوريين القومي يتجه في دائرة الكبت والرغبة الحارة بانتصار الحلفاء ليذبثق من وراء هذا الفوز نور جديد وحرية ضائعة فاحتمل السوريون خلال اربع سنوات الحرب شتى انواع الظلم والارهاق ، وقد دهمتهم المجاعــة ففتكت

فتكاً ذريعاً في ناحية كبرى من نواحي الوطن حيث كانت النفوس في لبنان تقع صرعى الجوع وفريسة البؤس والشقاء لا سيما في اوساط الطبقات الفقيرة .. وكان كل ذلك مدعاة لأن يرسم الادباء بعض هذه الخلجات ، وأن يصوروا هول الحرب وهول المجاعة وما عانته بلاد الشام من احداث .. وهذه نوازع صارخة تثير شعور الاديب لأن يرسم هذه الاحداث بقوة .. ولكن شيئاً من هذا لم يكن ، فقد انصرف اكثر الذين يحسنون الكتابة وينظمون الشعر الى تمجيد الطاغية جمال بشعر كله ملق ورياء .. ومرت ايامهم بالزلفى والعبودية وعدوها « تقية » لا بد منها.. وهكذا مرت هذه الفترة من حياة السوريين -وهي ملأى بالعظات - دون ان نرى هذا الاديب الملهم

الذي يسجل هذه الاحداث بأدب حي ، وبشعور انساني صادق ، ولم تلد المطابع في سورية ولبنان اثرا واحداً يرسم هذه النكبات، حتى بعد ان وضعت الحرب العالمية اوزارها، مع ان العوامل الانسانية كانت مؤاتية لها بشكل عجيب .

* * *

انبثقت الرغبات والاحلام بعد الحرب وأخذ الناس يتساءلون ما الذي جد في العالم ؟ وأخذ الادباء السوريون يتساءلون ما الذي جد في مصر خلال هذه الفترة الطويلة.. كانت سوريا والعراق تتغذى بقصائد اسماعيل صبري وشوقي وحافظ والمطران وبهذه المقالات يرسلها ولي الدين يكن والمنفلوطي ، وبهذه الآراء والمجادلات الاجتماعية والدينية التي اثارها قاسم امين وفريد وجدي حول تحرير المرأة ، ثم

بهذه الكتب التي نقلها فتحي زغلول عن اديمون ديمولان وغوستاف لوبون وما سبق هذه الفورة الادبية من انبثاقات فكرية خلقها جمال الدين ومحمد عبده والكواكبي والشميّل وصرّوف، كل في ناحيته، ـ تطلّع الادباء الى مصر يبحثون عن الانتاج الفكري الجديد واذا مصر هي ايضاً لم تنتج شيئاً خلال الحرب .. وبالطبع لم يكن القطر العراقي احسن من مصر وسورية في هذا المضمار.

* * *

وواجه العرب، وبلاد الشام بصورة خاصة، منذ الفترة التي اعقبت الحرب الكبرى حتى الآن ـ مشاكل جديدة في حياتهم السياسية لأن الوعود البراقة ذات الاحلام المجنحة التي خدّرتهم خلال الحرب الماضية لم

تكن الا سراباً خادعاً . فقد استيقظت المطامع السياسية بشكل صارخ زري ، ووقف القوي ازاء الضعيف يعلن صلفه وجبروته، وعرف الشرق اوروبا معرفة صحيحة بعد ان كان يحمل لها الاجلال والقداسة..لقد كانت اشبه عثله الاعلى في الكمال الانساني.واذا هي، في الشرق ،غير ما قرأه عنها في الكتب . انكرها سياسيا انكاراً يوازي ايمانه بها علمياً ، وكان لا بد من الصراع - صراع الحق مع الباطل، ومرّت هذه السنوات الطويلة ١٩١٨- ١٩٣٨ ولا يزال الشرق العربي يصارع في سبيل توطيد كيانه السياسي والفوز بحريته الغالية ، فماذا كان موقف الادب العربي من هذه الاحداث؟ ثم هل تطور الادب في سورية خلال هذه الفترة ؟

للجواب على السؤال الاول نقول إن الادب وقف حائراً ، لم تتعال صيحته ، ولم يؤد رسالته ، اللهم الا بعض قصائد جوفاء وأناشيد حماسية ليس لها هذه القيمة الادبية العليا ولا هذه النزعات الفنية الصميمة .. مع ان الصحافة - والانصاف يدعونا ان نسجل هـذه الظاهرة - قامت تؤدي رسالتها باطمئنان وتصف هذه النزعات القومية التى اخذ يحسها السوريون .. وكانت تستهدف بأبحاثها ماضي العرب وفتوحاتهم وحضارتهم وحقهم في الحياة ثم غمزهم للاساليب الاستعمارية وتقديس للشعور الوطني .. وهي آراء ولمحات عاطفية كان يتناولها الصحفيون بدافع من شعورهم القومي وبحكم مهنتهم .. وحتى هـذه الخلجات الحارة لم يسجلها اديب بنزعـة فنية ولم يعرض لهـا مؤلف هـذا

العرض التاريخي الذي تطبعه الدراسات الادبية بطابعها التحليلي المتزن .. فقد كان المفروض ، ونحن تحت ضغط هذا الحماس الذي ظلّ مكبوتاً عدة قرون - ان يتقدم كاتب بليغ او اديب موهوب او مؤرخ يجمع صفة الكاتب الاديب فيخرج اكثر من كتاب واحد عن تاريخ العرب ومدنيتهم والدور الفذ الذي لعبوه في تاريخ الانسانيـة .. او عن هذه الحركات القومية او عن التطور الاجتماعي او غير ذلك مما له صلة وثيقة بالحياة الفكرية .. ولكن شيئاً من هذا لم تواجهه حركتنا الادبية ، وظل الادب - وهنا نجيب على السؤال الثـاني - طفلا يحبو او شيخـاً اقعدته السنون عن السير لا يعرف كيف يتجه .. حسبه من القوة والفخار ماضيه السحيق الذي يمت الى الاداب العربية

العربية القديمة بنسب عريق ..

* * *

واذا كان للعوامل السياسية اثرها في تطور الادب او خموده فمن الانصاف ان نقول ان هـذا الشعور الكمـين الذي استيقظ بقوة خلال الحكم العربي في عهد الملك فيصل قد انكمش بفترة ايضاً بانهيار عرشه ودخول الافرنسيين الى سوريه .. وما هي الاسنة وبعض سنة حتى فكر صفوة من ادباء دمشق ان يبعثوا الحركة الادبيـة مجـدداً فـدعا خليل مردم بك في ٤ اذار سنة ١٩٢١ رهطـاً من الادباء والشعراء الى منزله حيث اسسوا جمعية « الرابطة الادبية » وكان الباعث الى هذا العمل، كما جاء في بيان الجمعية : «حاجة الادب العربي الى نهضة توقظه من سباته وتبعث فيه روح

النشاط ، وان كل مجهود يبذله افرادهم متفرقين لا يأتي بالثمرة المطلوبة فأزمعوا على انشاء جامعة ادبية تلم شملهم وتوحد قواهم » وقد رأوا ان يصدروا مجلة لتكون لسان حال الجمعية فصدرت مجلة « الرابطة الادبية » باسم الجمعية وذلك في اول ايلول ١٩٢١ واشترك في تحريرها ادباء الشام وصفوة من ادباء بيروت يعاونهم بعض ادباء العراق وقد اوضح الاستاذ خليل مردم بك رئيس الجمعية ورئيس تحرير المجلة حالة الادب في ذلكم العهد بقوله :

« ادبنا اليوم اشبه بمريض الحّت عليه العلل والامراض حتى أمضّته .. اما علاجه فهو لا يعدو احد قسمين لايجوز التفريق بينهما وان اختلفا .. تعهد جسمه الناحل الضاوي بالتقوية ، والثاني نفي الاوضاع التي علقت ببدنه ، وكان

منها بؤرة جراثيم خارت له عزائمه، فعلى من يتصدّى لمعالجته ان يكون بانياً وهادماً، وطبيباً وجزاراً، ونعني هدم ما تداعى من الفاسد وبناء الصالح مع حياطة المتين منه» ورغم هذا الشعار الحاسم: شعار الهدم والبناء الذي اتخذته المجلة هدفاً لها فقد كانت تعمد الى الترميم والرجوع الى الماضي اكثر من مسايرة النزعات العصرية .. واذا صحّت كلمة الحكيم الافغاني: «ما دخلت السياسة شيئاً الا افسدته» . وهي صحيحة، فقد تخوفت السلطة الافرنسية من انبثاقات الادب القومي، فلم يمر على ظهور المجلة تسعة شهور حتى اصدرت امرها باغلاقها، وبذلك انفرط عقد الجمعية ولم تستطع ان تعمل على بعث الحركة الادبية - هذا البعث الذي كان يرجوه ادباء الشام .

وصدرت بعد ذلك صحيفة « الميزان » في دمشق ، وهي جريدة اسبوعية كان يصدرها المرحوم احمد شاكر الكرمي ، الاديب النقاد الذي بدأ حياته الادبية بتحطيم اصنام الادب ونقد كل اديب او شاعر يقوم ادبه على الصنعة والبهرجة والزيف .. واستمرت سنوات .. ولكن الاقدار القاسية لم ترأف بهذا الاديب الحر فقد دهمه السل وهو في ريعان شبابه ، فخسرت نهضتنا الادبية بوفاته اديباً نقاداً كان سيكون له شأن في تحوير مجرى الحركة الادبية في سورية وتوجيهها توجيهاً صادقاً ..

* * *

هذا الادب المريض الذي الحّت عليه العلل كما قال خليل مردم بك كان يتطلع الى طبيبه الحاذق .. وكان « المجمع العلمي العربي » يضم الكثير من الاطباء . ولكنهم

كانوا يحاولون انقاذ علته بطب ابن سينا لا بطب باستور مثلاً .. كان ادب اكثرهم ضربا من المحاكاة والتقليد، ليس عليه النزعة المثالية، فوقف حيث هو يشكو آلامه المبرحة .. وتطلّع الشباب الى مصر وادبائها والى المهجر وشعرائه .. واذا نحن ازاء ألوان حية واصداء متنافرة تجمع بين النزعات القديمة والنزعات الحديثة، وبين الادب الوجداني والادب الكلاسيكي .. واذا جبران الشاعر المتصوّف يطل بآرائه الخيالية، وطه حسين بدراساته التي وجهت الادب العربي توجيها جديداً، وهيكل بروحه المنطلقة، والرافعي بخصوماته العنيفة وثورته على كل جديد، والبشري بأسلوبه العباسي الانيق الذي يطل من كوة ضيقة على تطورات هذا العصر، وسلامه موسى بآرائه

الجريئة ودعوته الى الاستغراب والى احياء الادب الفرعوني بدلا من الادب العربي القديم، واذا نحن ازاء تلخيصات شاملة لبعض المذاهب الفكرية في الغرب وازاء مشكلة جديدة اطلق عليها مشكلة « الادب القديم » و « الادب الحديث » أثارها الادباء المصريون بقوة وعنف - هذه المشكلة التي استمرت عشر سنوات كاملة منذ ٩٢٢ حتى سنة ٩٣٢ الى ان انتهت عند هذه الناحية التي اعتبرت انصار القديم - سواء في ميادين الادب او ميادين التفكير - اولئك الذين لا يريدون التحول عن الماضي حتى في عنعناته ، وحسبهم من الادب تقليد ما اتجه الادباء والشعراء في في العصرين الاموي والعباسي ، فهو مثلهم الاعلى في الادب - بينا انصار الادب الحديث قد اتجهوا اتجاها يختلف كل

الاختلاف عن مذاهب خصومهم .. فقيمة الادب عندهم في الابداع لا فى التقليد ، وفي المعنى قبل المبنى .. وفي ان تقترب ادابنا من الاداب الحية لا ان تظل في عزلتها .. وانتقلت هذه الاراء وهذه الاتجاهات الى سورية ولكنها لم تحرك الادباء السوريين ، او « الاكادميين » لدخول المعركة .. ووقف ادباء قبل الحرب ومن نحا نحوهم من ادباء المدرسة الكلاسيكية ، سواء في سورية او في لبنان يرقبون هذه المعارك بهدوء وحذر .. ويحسن ان نشير هنا الى ظاهرة يلمسها كل من امعن في الاتجاه الذي اتجه اليه الادب في سورية ولبنان في تلك الفترات .. انه اتجه اتجاهات متباينة .. فهو في سورية ـ ادب عربي صميم فى روحه ومادته .. فادباء دمشق اكثر ادباء العرب حرصاً

على الاتصال بالماضي وبالادب العربي القديم .. نرى ذلك في الاسلوب وفي الاتجاه .. ولا عجب فدمشق احدى المدن التاريخية الكبرى التي تربطها بالتاريخ الاسلامي روابط وثيقة – حريصة على هذه الروابط وعلى بعث ذياك الماضي .. وليس كالأدب اداة لوصل هذه الروابط – دمشق التي حملت ميراث العرب في سالفات الايام تريد في هذا العصر ان تحتفظ بهذا الميراث وان تعمل على صقله نقياً، وعلى بعثه قوياً .. وشعراء دمشق كأدبائها سواء في هذه النزعة الصحيحة .. فنحن حين نقرأ قطعة من الشعر لمحمد البزم نحسُّ كأنا نسمع اصداء شاعر جاهلي .. وقد نسمع هذه النفحات الاموية احياناً في شعر خليل مردم بك الذي يريق على قصائده بعض صور هذا العصر وألوانه .. ولا

اتوسع في ايراد الامثلة بل اريد ان اقول ان ادباء الشام ذوو نزعة خاصة للقديم ولبعث الادب القومي وحجتهم في ذلك اننا مازلنا في هذا الوضع السياسي المضطرب وما زال الاجنبي يسيطر على مقدراتنا السياسية. ويلاحظ القراء اننا نتحدث عن الحركة الفكرية في سورية في الفترات التي مرّت بين الحربين وفي عهد اسود كانت تخضع فيه سورية للحكم الاجنبي. ازاء هذا الوضع كان الادباء يرون انه، مادمنا كذلك، فلا مندوحة لنا من التعلق بالماضي وبعث ميراثنا والحفاظ على ادبنا القديم.. اما هذا الخيال الممزوج بالانوثة الذي يفسد اذواق النشء ويفرّقنا عن غاياتنا المثلى فنحن في غنىً عنه.. وقد اشار الى هذه الناحية اديب دمشق وشاعرها الكبير الاستاذ شفيق جبري بقوله:

« انا معاشر اهل الشام نفضل الشعر الذي نرى عليه آثار القومية وآثار الوطنية ، لأننا في غلاب ونضال .. انا نستخدم هذا الشعر حتى يقوي فينا هذا الغلاب وهذا النضال .. وما على الشعر ان تظهر عليه آثار البيئة وآثار العصر .. ما عليه ان يقبع في افق ضيّق حيناً من الاحيان فاذا ظمأت النفوس الى حرية تفكيرها وحرية شعورها ، اذا استطاعت ان تدفع عنها هؤلاء الذين بسطوا عليها ظلهم على أساليب شتى واسماء مختلفة ، تارةً في اسلوب الارشاد ، وتارة على اسلوب التهذيب ، وحيناً باسم التقاليد ـ اذا اطمأنت النفوس الى حرية حياتها فليخرج الشعر يومئذ من افقه الضيّق ـ افق القومية وافق الوطنية ليحلق في السماء التي يريدها .. اما نحن الآن في دمشق

فلا يرضينا الا النغمة الوطنيـة في الشعر .. قد نكون على حق وقد نكون على باطل .. هذا هو الامر الواقع» ..

وكأن الاستاذ جبري قد لفظ كلمته الحاسمة في هذا الجدال الذي ثار بين الادباء .. هل نوجّه ادبنا اتجاهاً قومياً ام انسانياً ؟ وهكذا نرى ان ادباء دمشق لم تبهرهم هـذه الالوان الجديدةفي الادب ولا اصداثها المتنافرة بل سلكوا هذه الطريق التي تربطهم بالادب العربي القديم اوثق رباط.

وهكذا ، فقد افترق الادباء الكلاسيكيون ، وعلى رأسهم اسرة المجمع العلمي العربي ، تحت هـذه البواعث ، عن اتجاهات انصار الادب الجديد وجماعة التجـديد في مصر .. وظلّ الشباب ، في سورية ، مأخوذين بالصيحات الجديدة دون ان تصرفهم هذه الصيحات عن الاصغاء الى

الايقاع القديم الذي يتخطى العصور حاملا أعراف بني امية ومطارف بني العباس .

اما في لبنان فالأدب يتجه غير هذا الاتجاه .. خضع الى عاملين قويين لهما أثرهما غير المنكور في تطوره .. فطبيعة الجبل من جهة ،وهذا الأدب الرومانطيقي الذي قرأوه في مدارس الارساليات :هذان العاملان قد عملا عملهما فى ادباء لبنان .

يصف سعيد عقل احد شعراء الشباب اللبنانيين طبيعة لبنان بصدد تساؤله عن نشأة المثولوجية بقوله :

« اذا اتفق لشعب ان وجد في بلاد ذات طبيعة جميلة ومختلفة ـ بلاد تغص بالجبال المختلفة الالوان ..هنا الاخضر

.. وهناك البنفسجي، فالادكن، فالاحمر، فالابيض. بلاد تهدر فيها الانهار وتموت على اقدامها الخلجان، يحوم شفقها كالخدود .. وتزرورق سماؤها كالعيون، يصخب شتاؤها بالغضب، ويموج ربيعها كحلي العروس .. اخذ هذا الشعب يمرغ انظاره واحساسه على الجمالات فيحسها ويحسها زيادة لاختلافها .. يعجب بها، يحبها، يكرمها، يقدسها، واخيراً يؤلهها .. فاذا البحر آله، والنهر حورية، والغابة جنيه .. والسماء آلهة، والصدى خيلانه، والاسماك بنات بحر وبكلمة اذا الميثولوجيا عند هذا الشعب».

ومع كل هذه الطبيعة المؤاتية، ومع ان لبنان اقرب الى الاداب الغربية من أي قطر شرقي آخر .. ومع ان المذاهب الادبية في فرنسا مثلاً قد تطورت تطوراً غريباً

بعد الحرب ـ مع كل ذلك ظلّ الأدب اللبناني في هذه الفترة التي اعقبت الحرب الكبرى بعيداً عن هذه التطورات. فهو هو ، قصيدة وخطاب يتليان في هذه المناسبات المتتابعة ، بعيد عن الابداع ، وقفت آفاقه عند هذه الحدود الضيقة التي تصله بأدب قبل الحرب الاّ بفروق ضئيلة .. وكأن لبنان اكتفى بادبائه وشعرائه الذين ارسلهم الى مصر والى المهجر في اواخر القرن التاسع عشر ، واكتفى بهذا المجد الذي ضفره على هامته اليازجيون والبستانيون والشميلّ والمطران وصروف وزيدان .. وما للادباء يتعبون ؟ لقد انتج الاوائل وتركوا لنا هذا المجد فلنكتف به .. ولولا هذه الكتب التي نشرها الريحاني وجبران ونعيمة ، وسلسلة من الكتب التي تحمل الطابع المدرسي ، وبعض انبثاقات

شعورية، وقطع من الشعر المنثور يمّت الى ادب جبران وتقلده تقليداً ممسوخاً - لولا هذه الالوان لخلا لبنان من أي أثر فني يذكر سواءً في الشعر او في النثر او في اية ناحية من نواحي التفكير العلمي.

* * *

هذا تلخيص موجز للاتجاهات الادبية في سورية ولبنان بعد الحرب الكبرى: سير وئيد في آفاق حائرة، التفات الى الماضي، وقفات حذرة بين الحاضر والمستقبل، اقرب الى التقليد منه الى الابداع، ومازال بين هذه العوامل المتباينة الى ان شعرنا في السنوات التي تلت سنة ١٩٣٠ مثلاً اننا ازاء اتجاهات في الادب تختلف كل الاختلاف عن اتجاهاته السابقة .. شعرنا اننا ازاء جيل جديد من الشباب

اليقظ المثقف ، يفهم الادب بمقاييسه الصحيحة ، ينتج في الشعر، وينتج في القصة ..في الواقع،انه لم ينتج هذا الانتاج القوي الذي نستطيع ان نباهي به الاداب الحية باطمئنان ولكنه قد تحرر من المبالغات والشعوذات .. وثار على البيان والبديع، واخذ يقترب من الحياة والجمال.. ولم يعد همّ الشاعر محاكاة المتنبي او البحتري او ابن الفارض او البهاز هير بل همه ان يصور خلجات نفسه ونزعات حسه ، واصبح الشعر، بعد ان كان ضيّق الافاق في هذه الشؤون التافهة ـ اصبح غيره قبل تلك الفترات .. اصبح عندنا شعراء من الشباب ينزعون نزعات سامية ويقتربون من الاداب الحية، يمتاز شعرهم بصفاء الديباجة وموسيقية اللفظ .. ووحدة القصيدة ، يضاف الى كل ذلك روعة الخيال وجمال الصورة

عمق الفكرة .. يصور عواطفهم ويصور حبهم ويصور مثلهم العليا ، ويصور احياناً هذه الاحداث التي تنتاب وطنهم بغير الحماس الاجوف او الشعور الحارّ المصطنع ..

وهذه الفئة ، وهي وليدة هذا التطور ، قد تأثرت الى حدّ كبير بالاداب الغربية وبالحياة الاوربية وبهذه المقاييس الادبية التي رسمها زعماء التجديد .. ولا نعلم اذا كان هذا الرهط من شعراء الشباب سيقف عند هذا الحد من الابداع في القصيد ام انه سيتعداه الى رسم تطورات الحياة بشعر يبقى على الزمن ، وبقصص تصور هذه المشاكل الانسانية بكافة ابتاقاتها ..

وبادرة ثانية نستطيع ان نشير اليها باعجاب وهي « القصة » لقد حاولها الشباب بجرأة ولباقة ورأوا ان يحذوا

حذو كبراء ادباء القصة او الاقصوصة في الاداب الغربية - حذو ديستفويسكي وتورغنيف وزولا وغي دوماباسان ومكسيم غوركي، وان يصوروا المحيط والبيئة، وان يرسموا اخلاق الناس وطباعهم وما تقاسيه البشرية من بؤس وشقاء وان يسبروا الى هـذا، غور النفس البشرية، فصدرت طائفة من الاقاصيص تمتاز ببعدها عن المبالغـات والتهويل وترسم هذه الصور الانسانية التي تطفو على وجه الحياة بنزعة فنية صحيحة وشعور حي .

وثمة ألوان في ادب المقالات التي تعرض الى المشاكل الانسانية والاجتماعية ومحاضرات تمتاز بدقة الدرس وبحث ادبنا القديم بحثاً يقوم على تركيز يتلاقى مع الاداب العالمية وغير ذلك من الانبثاقات الفكرية التي توجهنا وجهات

جديدة . وكأن تلك السنوات هي الحد الفاصل بين ادب البيان والبديع الذي يقوم على البهرجة والشعوذات وبين الادب الحي الذي يستمد قوته من صميم الحياة .. وهذه نتيجة حتمية لتطور حياتنا بعد الحرب الكبرى .. واتصالنا هذا الاتصال الوثيق بالغرب .. وهذا بدء انتعاش ادبنا .. ولايهولن هذا التخريج احداً من انصار القديم او من ادباء البديع « فالأدب العربي في كل عصوره القديمة تأثر بالفعل بالحضارات المختلفة ، وجرى في شرايينه الدم الفارسي والهندي والرومي .. وهذاما التفت اليه الشباب الذين يعملون على السير بنهضة الادب في الطريق الذي اختطته الامم الحية ـ خلق اداب تقوم على الفكرة قبل ان تقوم على الصياغة ، وعلى الانتاج القوي لا على الشعوذة

وفهم رسالة الادب على انها رسالة الحيـاة ورسالة الجمال .. والآثار الجديدة التي اخذت تقذفها المطـابع لابناء الجيـل الجديد ، ولاساتذة الجـامعة السورية .. وبعض المفكرين من الادباء ـ رغم انها لاتزال في اغراض محدودة ـ تنسجم وهذه الاتجاهات،وهذا ما يجعل لرسالة الادب في سورية هذه القيمة التي نرجو ان تتكامل وان يكون لها هذا اللون الانساني الذي يدنيهـا من الآداب الحية ويضفي عليها سمات الخلود .

١٩٣٨

أثر الكتاب الاحرار
في يقظة العالم العربي

يلعب الفكر الحر في تاريخ الانقلابات والثورات اكبر دور .

والمفكرون الاحرار من الكتّاب والادباء هم الذين يسبقون عصرهم دائماً ، فيرسمون لجيلهم وللاجيال المقبلة الخطط والمناهج والاهداف البعيدة المدى ، ولبلوغ اهدافهم

يثيرون الافراد ويحركون الجماهير ، وما يزالون في نضالهم الحر العنيف وكفاحهم الدامي المستمر الى ان يحين حينهم ، فتتمتم شفاههم في ساعاتهم الاخيرة ، بعض كلمات متقطعة تحمل في اطواء حروفها خلاصة جهادهم الطويل في النضال عن حرية الفكر والقضاء على الطغيان وكأنهم يقولون لمن بعدهم :

لقد بدأنا جهادنا بعد ان آمنا بالفكرة التي دعونا اليها فاضطهدنا وتعذبنا ، سجنا ونفينا ، ولكننا لم نيأس ،فواصلوا السير ، وإياكم ووهن العزيمة . فترن هذه الكلمات رنينها الداوي في ضمير المجتمع ، وما هي ساعات ، واحيانا سنوات ، حتى تنفذ الى قلب مفكرين آخرين غيرهم يضطلعون بحمل الرسالة الكبرى ليتموا رسالة اندادهم ..وهكذا ،من حقبة الى

حقبة ، ومن جيل الى جيل ، الى ان تبلغ الامة رسالتها ، وتحقق ، في ميدان التحرير ، اهدافها ومثلها وغاياتها .

ولا يهم الرجل الذي يقود امته الى مواكب النور أتحققت رسالته في حياته ام لم تتحقق ، فحسبه انه ادّى واجبه باطمئنان ، ووضع بذور الثورة في قلب المجتمع الذي يعيش في طواياه . وقد ترك للزمن ان يعمل عمله العجيب في إنبات هذه البذور وانماء تلك الاغراس .

هذا هو دور المفكرين الاحرار في نضال الامم الفتية الناشئة :

ولكل امة قادتها ومفكروها ، ولها في مراحل الجهاد شهداؤها وضحاياها .

وكان لابد للامة العربية ، بعد رقادها الطويل ، من

ان تنهض ، وان تسير قدماً في طريق الحياة ، واذا كان تاريخها الحديث قد خلا او كاد من قائد حكيم او رجل قد اضطلع وحده باعباء نهضتها الكبرى فهو لم يخل من الشهداء والضحايا .. وكان لغير واحد من المفكرين هذه الصيحات التي انبعثت تهز مشاعر الامة الوسنانة في كل قطر عربي، وهي تهيب بهم. ان يعملوا الاعاجيب لاستعادة الماضي الذهبي ، والسير مع الامم الحية في موكب النور.

انبعثت هذه الصيحات في منتصف القرن التاسع عشر حيث بدأت طلائع النهضة ، اما قبيل هذه الفترة فقد كان الشرق العربي في شبه غيبوبة ، بل ظل عدة قرون تتأرجح شخصية العرب في كنف الرجل المريض ، ولم يكن للحياة العقلية اي اثر يذكر في تاريخهم ، وكانت اشبه بالحياة

العقلية في اوربا في القرون الوسطى.. ولولا ارتباطهم بلغتهم - وهي احدى مقوّمات النهوض- لكانت طلائع هذه النهضة قد تأخرت جيلاً او جيلين.. ولكن من حسن حظ العرب ان عاملاً خفياً كان يوقظهم كلما ركنوا الى غيبوبة اهل الكهف، أريد بهذا العامل الخفي - لغة القرآن - فقد كانت الحارس الأمين الذي أنقذهم من التدهور والانحدار الأبدي، واستطاعت العربية - هذه اللغة الجميلة - ان تفرض ذاتها حتى على السيطرة العثمانية - على الدولة وكبار كتابها وفطاحل علمائها.. ورأينا اكثر من ألفي كتاب عربي تدبج باقلام كتّاب اتراك في اغراض دينية وتاريخية وما يمتّ الى ثقافة تلك العصور بصلة (١)

(١) للكاتب التركي محمد طاهر البروسه لي، كتاب اسمه «عثمانلي مؤلفلري» الم فيه الى المؤلفين الاتراك الذين اشتغلوا بالتأليف

وهكذا فقد استطاعت عبر القرون ، ورغم الاسقام التي احاطت بها ، ان تعيش وان تتخطّى الفجوات والمهالك ، الى ان أطلّت بهزالها الموجع ورونقها الكئيب على القرن التاسع عشر ، فرحب بها المحبون ، ورعاها المفكرون ، — وجميعهم — على قلتهم — من الاطباء الحاذقين ، واتخذوها ذريعة لبعث عربي كبير ، فصدرت النشرات والصحف ، وكتبت الرسالات والكتب ، وكانت العناية باللغة مظهراً من مظاهر البعث العربي ووضع اسس ثورة فكرية قام بها المعنيون بالتحرير القومي في كل صقع عربي . فمنذ نصف قرن ، والامة العربية ، تعمل ، وتحاول ما استطاعت ، ان تنفض عنها اثقال القرون ، ولعب الادب ، في هذه الفترة ، دوره الخطير في

منذ ظهور الدولة العثمانية الى يومنا هذا ، وقد ذكر أكثر من ألفي كتاب باللغة العربية مؤلفة بقلم كتاب اتراك .

التمهيد للبعث السياسي والتطور الاجتماعي على ضوء مابلغته الامم الاوربية من رقي ، وانبعثت صيحات المفكرين الاحرار من الساسة والكتّاب والشعراء ، تدوّي في الارجاء العربية من المحيط الاطلسي الى الخليج الفارسي حتى خلقت هذه اليقظة التي تبشر ببعث عربي بليغ الاهداف والمرامي ، بليغ المقاصد والنتائج ..

وعصر النهضة العربية الذي نحيا في صميمه الآن ـ هو فترة الانتقال من العهد العثماني الى العهد العربي ـ والتشابه جد شديد بين فجر النهضة العربية وفجر النهضه الاوروبية « فعصر النهضة الاوربية هو فترة الانتقال من العصور الوسطى الى العصر الحديث ، ففيه تبدات الحياة السياسية وتغيّرت احوال الناس الاجتماعية ، وآراؤهم الدينية والادبية

والفنية ، وهب الناس من رقادهم يطلبون العلم ، وأخذوا ينظرون الى الحياة نظرة جديدة تختلف كل الاختلاف عن نظرتهم السابقة لها » .

والحياة في البلاد العربية، قبيل الحرب الكبرى ، تشابه من بعض الوجوه الحالة التي كانت عليها اوروبا ، قبيل فترة الانتقال الى عهد الرينسانس، ولكن وسائل هذا العصر العجيب في بسط المعرفة أقوى بكثير مما كانت عليه في الماضي، حتى لتبدو المقايسة لوناً من العبث، بل من العبث ان ننكر ما افادته الامة العربية من خيرات هذا العصر ، فقد افادت الشيء الكثير ، وكان لاتصال الشرق بالغرب أثره القوي في توجيه الامة العربية هذا التوجيه القوي الذي بدّل الكثير من اوضاع حياتها حياة

الفرد والمجتمع وحياة الامة والحكومة .. وهكذا فقد انبلج فجر قرن العشرين عن يقظة فكرية حرة هي تتمة النهضة في اواخر القرن التاسع عشر .

كانت مهمة الكتّاب في اواخر القرن التاسع عشر ان يوقظوا الوسنانين ويرفعوا العصائب عن العيون ، أما مهمتهم في القرن العشرين، وقد استيقظ النائمون وأخذوا يتبينون معالم الطريق - فهي بسط المعرفة في كل أرض عربية وتحرير الفكر من الاصفاد .

استهدف الكتّاب والمفكرون غاية كبرى .. وعملوا ما وسعهم على تحقيقها . . فما هي هذه الغاية ؟ هي خلق كيان قوي - كيان مستقل حر ، يتّسم بالطابع العصري في جميع الاتجاهات التي تتجه اليه الامم .. فعملت السياسة

مع الادب في هذا المضمار ،وكان للنضال القومي ،وللنضال الفكري اثرهما المشترك في حياتنا العقلية التي اخذت تتحرر من الكثير مما يعوق سيرها السريع في شتى الميادين .

وقد يكون ، بين هذه الخطوات التي خطتها الامة العربية والاشواط التي بلغتها الامم الحية آماد طويلة ، والواقع ، انها آماد طويلة جداً .. فالامة العربية لا تزال في بدء السير ، وفي الشوط الاول من وثبتها الكبرى ، ولكن الشيء الراهن هو ان يقظة عجيبة سرت في جسم الامة العربية سريان الكهرباء .. أيكون لطفولتها في عصر النهضة من القوة ما كان لرقدتها الطويلة من الانكماش والضعف في عصور التفكك والانحطاط ؟

اما الذين في قلوبهم مرض فيهزون رأسهم علامة السخرية ويهزأون .

وأما المؤمنون فيصيحون من الاعماق ان فجر الامة العربية قد انبثق وان نوره قد لاح في الآفاق !

فلمن يعود الفضل في هذا البعث ؟

للكتّاب ، وأكاد أقول للكتّاب الاحرار وحدهم .

فهم الذين وضعوا بذور الثورة الكبرى - ثورة التحرير الفكري ، في كافة حياتنا العقلية ، فمن صيحات لتنقية جوهر الدين من جمود المحافظين الذين يُنكرون ناموس التطور في الحياة الاجتماعية ، الى صيحات لتحرير المرأة من عبودية الجهل ، الى غيرها لتحرير الادب من ميوعة التقعر اللفظي وسماجة المبالغات ، الى صيحات

داوية في السياسة وفي القومية ـ كان لجميع هذه العوامل اثرها في تطورنا السياسي والفكري معاً .

فرسالة محمد عبده مثلاً في سبيل قدسية الدين واخراجه من قيود الجمود . ورسالة الكواكبي في انشاء وطن عربي حر وتحطيم الطبائع التي عاشت عصوراً طويلة في دياميس الاستعباد . ورسالة قاسم أمين في سبيل تعليم المرأة والنهوض بها لتساهم مع الرجل في بناء الكيان الاجتماعي ، ورسالة الشميّل في إشاعة روح العلم والقضاء على المشعوذين الذين لا همّ لهم الا الرجوع بالامة القهقرى ، ورسالة الريحاني في بذر بذور الحرية والقضاء على الطائفية . والزهاوي في الدفاع عن حيوية الفكر ، والمعاصرون من أحرار الكتاب الاحياء الذين ما فتئوا يعملون في جميع

الميادين ، وما تخلل تلك الفترات من ثورات الاستقلال والحرية التي قام بها المجاهدون في سبيل خلق كيان وطن عربي حر - ان جميع هذه الصيحات - وهي البذور الاولى التي زرعها المفكرون الاحرار في الارض العربية - هي التي انبتت هذه اليقظة المباركة التي تقوم على اضوائها نهضة الامة العربية - هذه النهضة التي كانت هواجس في ضمير الكتّاب فأصبحت اليوم حقيقة راهنة في ضمير المجتمع ، وكم لاقت هذه الهواجس من عنت وارهاق ، وكم تحمّل اصحابها من ظلم واضطهاد ، ومع ذلك فقد تخطى الفكر الحر جميع هذه العوائق ، واستطاع أن يقود الامة العربية ، رغم ما اعترضها من عقبات ، الى طريق المجد. فالمرأة وما بلغته من مكانة رفيعة في المجتمع ، والمجتمع وما بلغه

من تطور في الحياة ، والحكومة وما تحاوله من اعمال فذة في خلق كيـان عربي حر ، ومانلمسه من تطور في جميع ميادين الحياة العقلية ـ كل ذلك وليد هذه الصيحات الحرة التي انبعثت من اعمـاق الـكتـاب الاحرار الذين رسموا الخطوط الاولى للبعث العربي الـكبير والوصول بالامـة الى اهدافها العليا وغاياتها المثلى .

١٩٤٠

مع ابي العلاء في سجنه

«وادخلت على الشيخ في حجرة واسعة ، بعيدة الارجاء ، قد جلس هو في صدرها على حصير لعله ان يكون اقرب الى البلى منه الى الجدة وبين يديه نفر يكتبون ، وفي الحجرة قوم آخرون كثيرون ، يسمعون ويعجبون ، ولكنهم لا يقيدون ما يسمعون

وكان صوت الشيخ شاحباً حزيناً قد القت عليه مسحة من كآبة ولكنه كان في الوقت نفسه ثابتاً ممتلئاً يمازج حزنه شيء من الرضا والامن وشيء آخر لا يكاد يحس كأنه يمثل غبطة هادئة وابتهاجا متواضعاً بما يتيح للشيخ من فوز .

طه حسين

. . .

أيهما احب الى القارىء الأديب ان يكون مع ابي العلاء في سجنه ام مع طه حسين في مصيفه ؟ . أفي معرة

النعمان ام في ضواحي باريس ، لاشك ان القارئ يؤثر باريس على المعرة : اذ ما عساه واجد في بلدة ابي العلاء غير هـذه الذكرى التي ترجع به الفسنة الى الوراء ليلقى هذه الدروب الضيقة الملتوية – في تلك القرية الباهتة التي لا يميزها على الكثير من المدن الصغرى او قراها الكبرى سوى انها بلد الشاعر الفيلسوف الذي عاش في كنفها واعتكف في بيته خمسين عاماً لا ينعم بمباهج الحياة ولذاذاتها، والذي نظر الى الكون بمنظار اسود وفرض على الناس فلسفته القاتمة التي تجعلك تهزأ بالحياة دون ان يعصمك من الموت علمك او جهلك، تقاك او ضلالك ، رشدك او هواك ، ايمانك او شكك، فلسفتك او استسلامك ! لاشك ان القارئ يؤثر باريس وضواحيها على المعرة وسجن ابي العلاء فيها . اذن، فلننزل عند رغبة القارئ

ولنسافر مع الدكتور طه الى باريس · ولنقض معه عطلته الصيفية التي يقضيها في الجبال والمرتفعات حيث يخلو الى نفسه ساعات من النهار ، يروّض فكره بالحديث عن شخصية ادبية او على هذه الخواطر التي تثيرها في نفسه تلاوة كتاب من الكتب ، بعيداً عن العمل الجامعي وعن مواضعات الحياة وشواغلها في مصر . حيث انتجت له رحلاته الصيفية هذه أكثر من كتاب واحد ، فكتابه « في الصيف » وكتابه « من بعيد » هما ثمرة رحلاته الى باريس ، كما ان كتابيه الاخيرين « مع المتنبي » و « مستقبل الثقافة في مصر » هما ثمرة هذه الرحلات ، وها هو يطالعنا هذا العام بكتاب جديد عن ابي العلاء يختلف كل الاختلاف عن كتابه السابق الذي كتبه قبل ربع قرن حيث افتتح حياته الادبية بتلك الدراسة التي كانت

الاولى من نوعها بالنسبة للدراسات الادبية الجديدة . . وقد
مرّت ايام تمنّى خلالها ان يعود الى ابي العلاء ليدرس بعض
نواحي ادبه ، وهاهو يعود اليه بعد فترة طويلة يدرس هـذه
الخصائص التي تميز ادبه فيعرض الى ارائه ويحلل نزعاته ،
والدكتور طه حسين من ، اقدر ادبائنا المعاصرين على ولوج
هذه الميادين التي ولجها ابو العلاء وانفذهم الى اعماق نفسه وتلمس
ما كان يحسه ويشعر به في جوه الفلسفي المعتم ، نعم ، فلنسافر
مع طه حسين ولنقض مع ابي العلاء ساعات في سجنه ، فليس
سجن الفلاسفة بالسجن الذي تضيق به النفس ، وكثيراً ما ارتاد
الادباء جحيم المعري وجحيم دانتي فرأوا فيهما هـذه العوالم
السحرية التي أيقظت في نفوسهم احاسيس اسمى من هـذه
الاحاسيس التي يوقظها وصف الجنان في نفوس المؤمنين .

اذن ، لاخوف من ان نلج مع طه حسين سجن ابي العلاء . . فهو سيرفق بنا اذا ضقنا بوحشة السجن ،وسيسرّي عنا بحديثه العذب ، . وها نحن نقطع البحر الابيض معه فاذا به يحدثنا في الطريق حديثاً طلياً عن الادب ، عن النفس ،عن الفن ، وعن جميع هذه العوالم الكبرى أو قل حديث بول فاليري عن صديقه الرسام « ديجاس » يصور فيها نفسيته أو نفسية اي فنان او كاتب يلتمس المثل العليا في فنه ، لا تهمه الشهرة الكاذبة او رضاء الناس عنه ، لا يهمه الا رضاه هو عن فنه ، كالمؤمن الذي لا يحفل الا بحكم ربه ، لقد رأى طه حسين في هذه الصفات المشرقة التي صور فيها بول فاليري صديقه الرسام ديجاس صورة من ابي العلاء ! « فشدة الرجل على نفسه الى اقصى غايات الشدة ، وشك الرجل في مقدرته الى ابعد آماد

الشك ، وارتياب الرجل باحكام الناس في امور الفن ، وزهد الرجل في الشهرة وبعد الصيت،وفي الثراء وسعة اليد،وانصرافه عن الحمد الكاذب والثناء الرخيص ، وتأجيله لذة الظفر بالفوز وخلقه المصاعب لنفسه ، وبغضه للطرق القصار والابواب الواسعة،وايثارة الطرق الطوال او الأبواب الضيقة۔ كل هذه الخصال التي يحدثنا بها بول فاليري عن صديقه واثيره ديجاس قد حدثتنا به القرون والاجيال عن ابي العلاء ، الا ان الاول كان مصوراً رساماً والآخر كان شاعراً حكيماً ». (١)

لقد كانت تجول في نفس طه حسين نفس الخواطر التي اثبتها بول فاليري ، ومن عجيب المصادفات ان يصحب معه الى باريس كتاباً لفاليري عن ديجاس في الوقت الذي يصحب

---

١ ـ مع ابي العلاء في سجنه ص ٦ و٧ .

معه اللزوميات ، والفصول والغايات لأبي العلاء ، وان تتلاقى آراء طه الناقد ، وفاليري الشاعر ، وديجاس الرسام ، وابو العلاء الفيلسوف في معنى واحد :

في حكم المصادفات واثرها في النفس . . وهكذا يمضي الدكتور طه في احاديثه العذبة عن السبب الحقيقي لاصطحابه كتب ابى العلاء ، وعن آراء ماسينيون في صلة ابى العلاء بالاسماعيلية ، ثم يدير حواراً بينه وبين المعري عن الرضا عن الحياة والسخط عليها ، وعن الابتسام لها والضيق بها فيصارح ابا العلاء بان تشاؤمه لا مصدر له في حقيقة الامر الا العجز عن تذوق الحياة والقصور عن الشعور بما يمكن ان يكون فيها من جمال وبهجة ، ومن نعيم ولذة .

ثم يعرض الى معنى التشاؤم والتفاؤل فيرسم صوراً من

نفسه ونفسية ابي العلاء ويرتفع الى القمة في تصوير هـذه الفروق بين المكفوفين والمبصرين في تلمّس جمال الحياة ومباهج الطبيعة ،ولا أبيح لنفسي تلخيص هذهالصفحات بل اهيب بالقارىء ان يرجع اليها ليقرأها وليعيد تلاوتها اكثر من مرة لانها قطعة سامية من الادب النفساني الرفيع تصور ادق ما يحسه طـه حسين ، وكأنه يعلن في هذه الصفحات ، عن فرط حساسيته المرهفةالتى تلمس الامور وتصورها اكثر مما يتصورها المبصرون انفسهم ..وهكذا ، ينتقل بالقارىء من صفحة الى صفحـة ، ومن فكرة الى فكرة حتى يضيق هو بفلسفة ابي العلاء القاتمة فيلتفت الى زوجه والى ابنيه والى صديقه الذين ينعمون بجمال الاراضي الايطالية ان ينقذوه من هـذه الحياة التي

يحياها في القرن الرابع للهجرة او في القرن العاشر للمسيح بينما هم يحيـون في القرن العشرين ! ولكن انى له ذلك ؟ فهو لا يكاد يفلت من سجن ابي العـلاء محاولا ان ينعم بهذه الطبيعة الحلوة بين الجبال الشاهقة والاشجار الباسقة والارجاء المعطـرة . نعم ، انه لا يكاد يفلت من آراء ابي العلاء القاتمة الى آيات أندره جيد الباسمة في ظلال الطبيعة المخضلة ، حتى يصرخ به ابو العلاء هذه الصرخة التي يشيع في اصدائها الزهد الشاحب المظـلم فيرتعـد ويتساءل ايهما الحق ؟ اسخط ابي العلاء وتشاؤمه ، أم رضى طه حسـين وتفاؤله ؟.

وما اظنني وقـد بلغنا ارض فرنسـا اننا سنبقى في باريس نستمتع بجمالها وهدوئها كما يريـد الدكتور طه

حسين ؟ وقد تسألني لماذا ؟اتكون المعرة اجمل من باريس، أم ان تشاؤم المعري اغلب من تفاؤل طه حسين ؟ لقد حاول الدكتور طه ، في الاراضي الايطالية ، ان يزيل نزعة التشاؤم من قلب الفيلسوف الضرير . ولكن المعري معتصم في سجنه ، يلقي دروسه على تلاميذه . وكأني به يخاطب الدكتور طه وقد ازورّ جانبه بقوله : لا مندوحة لهذا الصديق اذا كان يحبني ويريد ان يتعرف الى آرائي من ان يترك باريس الى المعرة : ففي هذه القرية يعرف كيف امليت اللزوميات ، وكيف فاض قلبي بالفصول والغايات .

وقد نزل طه حسين عند رأي صديقه ، فها هو ذا يترك باريس وضواحيها ويعود الى هذه القرية المتواضعة

يستمع اليه ويصاحبه فترة من الزمن يحدثنا احاديث جديدة عن شيخ المعرة في طائفة من آرائه وأدبه ، في سجنه الذي ارتضاه لنفسه خمسين عاما كاملا، في مصير النفس، في متاعب الحياة ، في السعادة والشقاء ، في اللذة والالم ، في الموت والبعث، في الشك والايمان، في الديانات ، في النبوات، في الايمان بالعقل ـ هذا العقل المفكر الكبير الذي فتح امامه شتى المعضلات الفلسفية العميقة التي ظل يعالجها نصف قرن كامل دون ان يصل الى اغوارها او الى هذه النتيجة التي يطمأن اليها قلبه . وهنا يعود طه حسين ليرسم من جديد خطوطاً جلية من حياة ابي العلاء الفلسفية ، ليرسم اثر هذا السجن الطبيعي والسجن الفسيولوجي في نفسه أي يعود ليتحدث عن محنته مجدداً وعن اثرها في نزعاته وميوله

وكيف تتراءى له عبقرية ابي العلاء من نوع فذ تختلف عن الكثير من العبقريات ، وعن عبقريات المكفوفين بصورة خاصة: «ذكاء ممتاز وملكات متفوقة وقدرة على الاجادة والبراعة فيما لا يجيد الناس فيه ولا يبرعون» (١) ومردّ ذلك آفته التي كشفت له سجنه الفلسفي وإمتزجت به حتى اصبحت سجناً من داخل سجن ثم انشأت له سجناً ثالثاً . . وهو بيته ـ الذي لزمه نصف قرن ـ في المعرة . .

يقول طه حسين : « وليس المهم انه اقام في بيته نصف قرن لا يتركه وانما المهم انه اقام في هذا البيت على نحو خاص لم يتعود الناس او لم يتعود اكثر الناس ان يقيموا عليه في البيوت، وحسبك انه كان فذاً في هذا بين المسلمين

(١) ص ٦٣

جميعاً على اختلاف البيئات والعصور فأبو العلاء لم يكتف بالسجن الذي فرضته الطبيعة عليه فرضاً حين افقدته ناظره كما يقول، وانما فرض على نفسه سجنين آخرين. احدهما ظاهر محس يراه الناس جميعاً ويشهدون ما يمكن ان يلقى سجنه من الحزن اللاذع والألم الممض وهو هذا البيت الذي اقام فيه ابو العلاء لا يريمه وفرض على نفسه لزومه مهما تكن الظروف وطلب الى اهل المعرة الا يخرجوه منه حتى يغير الروم على المدينة، والثاني سجن فلسفي تخيله كما يتخيل الشعراء، واشتقه من حقائق الأشياء كما يفعل الفلاسفة (١)

أراني في الثلاثة من سجوني فلا تسأل عن الخبر النبيث

(١) ص ٣٠

لفقدي ناظري ولزوم بيتي و كون النفس في الجسم الخبيث

وبعد ان يطيل الكلام عن هذا السجن او عن سجونه الثلاثة يبدأ حديثاً آخر يكشف لنا فيه أثر هذه السجون في أدب ابي العلاء فيسجل آراء جديدة من القيمة بمكان عظيم ، وان اشير الى درسه بعض قصائده من الناحية الفلسفية او الناحية الفنية وما تتخلل ذلك من آراء له تلخص جماع الفلسفة العلائية ومذهبه في الحياة بل سأعرض الى هذه الناحية التي وقف عندها طويلا والتي لم يسبقه اديب الى تناولها او الالماع اليها وهي ان هذا السجن الذي ارتضاه قد جعله يروض نفسه بما يعينه على التفكير بدون انقطاع . . فما هي رياضته ؟ يقول طه حسين :

«واول ما اواجهك به من ذلك، وانا اقدر انك ستلقاه منكراً له ثائراً عليه هو ان اللزوميات ليست نتيجة الفراغ وليست نتيجة الجد والكد وانما نتيجة العبث واللهو» (١)

وقارئ هذا القول قد يتهم طه حسين بالمداورة او بعدم فهمه لاراء ابي العلاء ولكن اذا رجع للفصل السابع من الكتاب وقرأه بامعان رأى كيف يدلل عميد الادب العربي على وجهة نظره ويؤيد صحة رأيه.

ولا احب ان الخصه ايضاً فقد يشوه التلخيص نظرية من النظريات الجديدة في فن ابي العلاء ولا اعرف كيف اهمل الكتاب المعارضون لطه حسين ـ وما اكثرهم ـ مناقشة هذا الرأي ولم يبحثوه بحثاً علمياً هادئاً مع ان المجال يتسع للمناقشة فيه بالتطويل، وما اظن ان اديباً يُسر بأن تناقش

(١) ص ١٠١

آراؤه وتصهر في بوتقة من النقد والتحليل كالدكتور طه حسين .

ثم ينتقل من عرض الجوانب الفلسفية من حياة ابي العلاء الى الجوانب الادبية وقد يحس القارئ - اذا لم يكن اديباً - بعض الفتور حين يوغل طه حسين في دراسة بعض قصائد ابي العلاء من الناحية الفنية البحتة ولكنه لا يلبث ان يعيد له نشاطه حين يستأنف الحديث عن النواحي العقليه وعن المشاكل الاجتماعية التي احسها ابو العلاء فيعرض رأيه في الاشتراكية - لا اشتراكيه كارل ماركس - بل هذه الاشتراكية التي استمدها فيلسوفنا العربي من الحياة المادية والعقلية لعصره ، ويعرض الى الثورات التي اضطرب لها النظام الاجتماعي والسياسي ايام العباسيين ، ثم يعرض

الى مدى تصور ماسينيون لتأثر ابى العلاء بالاسماعيلية ، ويشير الى انكار المعري لفريضة الحج والى غير ذلك من هذه المشاكل الاجتماعية والفكرية التي واجهها ابو العلاء وعرض لها في اللزوميات، وبعدان يفرغ من درس اللزوميات ويشرح اجمل قصائده من الناحيتين : الفنيه والفلسفية يقول لك رأيه في شعر اللزوميات ورأيه انه من الاسراف ان نظن ان شعر اللزوميات جيد كله من الناحية الفنية الخالصة لأنه يعتقد ان الجيد من شعر اللزوميات قليل يمكن ان يستخلص في مجلد نحيف يجمع الي الجمال الفني خلاصه الفلسفة العلائية كلها.

ثم ينتقل الى الفصول والغايات ، ودراسته عن هذا الكتاب هي الاولى من نوعها لان جميع الادباء الذين عرضوا لابى العلاء قد اهملوا الكتابة عن هذا الاثر او اقتصرت

كتابهم على ضياع أثر من انفس اثار ابى العلاء، وفي اعتقادي انه لابدّ لقارىء الفصول والغايات من تلاوة ما كتبه طه حسين عن هذا الكتاب ليتاح له ان يدرك النواحي الفنيه والتأملات الفلسفية التي ارادها المعري.

هل اراد معارضة القرآن في الفصول والغايات ؟

ماوجه المشابهة بين اللزوميات والفصول والغايات ؟

ما رأي المعري في البعث ؟

اين تلتقي واين تختلف آراؤه مع آراء الابيقوريين ؟

لماذا آثر ابو العلاء الرمز واصطنع الالغاز في ادبه ؟

ماهى الناحية الانسانيه في شخصية ابي العلاء ؟

كيف بدأت حياته الفلسفية ؟

هذه اسئلة تثير في نفس القارىء الشكوك حين يقرأ

هذا الكتاب ؟ وقد اجاب عليها الدكتور طه باسلوبه الساخر الأخاذ ، وبروحه الادبية العميقة ، وبعقليته العجيبة المشعة.
والان قد يسأل القارىء اين نحن من الرحلة ؟ أفي ضواحي باريس مع طه حسين في مصيفه؟ ام في دروب المعرة الضيقة المعتمة نستمع الى ابي العلاء في سجنه ؟ ولست في حاجة لأن اجيب على هذا السؤال فحسبي هذه الصفحات التي تصور ومضات ضئيلة من عقليتين جارتين تتصارعان برفق وهدوء . وللقارىء ان يجيب نفسه ، وفي ظني انه ان يهتدي الى الجواب قبل الرجوع الى الكتاب وتلاوة فصوله بدقة وامعان . • وقد تسألني عن رأيي في الكتاب فلا اتردد ان اقول انه ليس من اثمن ما ابدعته عبقرية طه حسين فحسب بل من امتع ما كتب عن ابي العلاء ومن امتع الكتب الادبية التي اخرجته المطابع العربية في هذا العام

خليل مطران

١٨٧١ — ١٩٤٩

. . في اليوم الثلاثين من شهر حزيران سنة ٩٤٩ نعت انباء القاهرة وفاة خليل مطران ـ الشاعر المظيم الذي ظل نصف قرن كامل ونيف ينفح العربية بروائع الشعر في شتى فنون الحياة . وقد تلقى الادباء والشعراء وكل من

عرفه او اتصل به او قرأ شعره ونثره ـ تلقوا نبأ وفاته بالالم والحسرة لخفوت صوت الشعر الذي ارتفع عالياً في الكثير مما مرّ بهذا الشرق من احداث سياسية واجتماعية ، فقد كان شعره ، رحمه الله ، صورة صادقة لنزعات التطور في الشرق ، ولهذه الوثبات التحريرية والحركات القومية التي قاد تيارها الزعماء والساسة والمصلحون . ففي رثائه لمصطفى كامل مثلا ـ اي قبل اربعين سنة . ذرف دمعة الصديق وأدّى حق الاخاء وحق الوطن فغمز من قناة الغاصب ودافع عن رسالة الاسلام وسفه اراء المغتصبين من مستعمري الغرب ووصف وطنية هذا الشاب المناضل الذي وقف وقفة الجبابرة يناهض سياسة المحتلين ، وقل مثل هذا عن رثائه للاستاذ الامام الشيخ محمد عبده وقاسم امين وسعد زغلول وهدى شعراوي وغيرهم من الاعلام الذين كان لهم اثرهم في التحرير

الفكري والبعث السياسي .. وهنا، وفي كثير من المناسبات يبدو مطران اقوى في شعره « الموضوعي » منه في شعره «الذاتي» ولكن الواقع يقول ان شعره الموضوعي اكثر وأوفر وأغزر من شعره الذاتي الذي يشرح فيه حالات النفس ونبضات القلب . نعم ، انه اكثر وأوفر ولكنه ليس أقوى وأطلى وأمتع . فكثيراً ما نقرأ له قطعة صغيرة لا تتجاوز ابياتها العشرة فاذا بنا ازاء لوحة فنية تفوق بروعتها وجمالها واثرها في النفس الكثير من تلك القصيدة التي جاوزت اياتها المائة . ولا انتقص هنا شعره الموضوعي فبالرغم من انه صورة صادقة للأحداث السياسية والاجتماعية فلا يمكن ان نجرد مقاطعه من إهاب الشاعرية .ذلك لأن خليل مطران شاعر قبل ان يكون رجل سياسة او رجل كفاح وطني .. ففي مجاراته تيارات السياسة وهذه الفورات القومية العارمة

لم يستطع في يوم ما ان يتخلى عن شاعريته .. ولهذا كان لشعره، سواء في المناسبات القومية ؛ ام في استعراضه أحداث التاريخ ، ام استخلاصه العظات من احداثه ـ هذه الروعة التي تشعرها وانت تقرأ قطعة يرسم فيها هذه الخلجات التى تصور شعوره الذاتي ..

ومما لا شك فيه ان دراسات كثيرة ستكتب عن خليل مطران ، فأفقه أوسع من ان تستوعبه دراسة واحدة أو عدة دراسات لكاتب واحد ، ولا شك ان هذه الدراسات ستبدأ منذ الان ، اى بعد ان طواه القدر وحين تفرغ المطبعة من نشر ديوانه الكبير الذي يشتمل على عشرة اجزاء أو اكثر ونشر الكثير من اثاره في الادب والتاريخ والقصة . ومن المؤسف ان لا يكون في حوزتي وانا اكتب هذه

الكلمة عن الشاعر غير الجزء الاول من ديوانه المطبوع قبل نصف قرن ، وهو يؤلف جزءاً ضئيلا من شعره في بدء شبابه . . اما شعره في فجر شبابه ، وفي نضج كهولته ، واكتمال شيخوخته فهو مبعثر في الصحف ، وبعضه بل اكثره لم ينشر قط . . وهيهات للكاتب ان يعثر على ما يروي ظمأه حين يتصدى لدراسة شعره ، وقد عانى صديقي المرحوم المستعرب الدكتور ادهم الامريّن حين تصدّي لتاريخ مذهبه الشعري ، وكانت لديه كافة المستندات التي توفر له مجال البحث والدرس ولا سيما وقد كان على اتصال وثيق بمطران وبأصدقاء مطران ، وتعتبر دراسته أوفى دراسة كتبت عن مطران وإن كان بحثه عن شعره أقل من بحثه عن فنه وحياته . .

اخلص من هذا الى ان كتابتي عن خليل مطران لن تطمئن شعوري وقد كنت اودّ ان تكون لديّ كافة آثاره لأبدأ بدراسة شاملة عن هذا الشاعر العظيم الذي ترك للأدب العربي ثروة ضخمة هي صورة واضحة لهذه الفترة من نهاية القرن التاسع عشر الى منتصف القرن العشرين . وفي كلامي عن مطران سأتناول بعض حالات نفسية من شعره الذاتي ، وهي تصور لونا من شعره وحياته الشعورية في فجر الحياة، وارجو ان اعرض في مناسبة ثانية ، وحين تتوفر لدي كافة دواوينه، الى بعض شعره والى الكثير من آثاره.

– ٢ –

ترجع صلتي بمطران الى سنة ١٩١٦ ، على ما اذكر

فقد كنا عصبة من الشباب نجتمع في بيت صديق ، وكنا نتذاكر الادب ، وننظم الشعر ، ونؤلف المقالات ، ونخطب ونشترك في تمثيل الروايات، اي كنا نقيم في كل اسبوع «سوق عكاظ» على حد تعبير بعضنا لهذه الاجتماعات وكان الصديق الذي نجتمع عندة من المؤمنين بشعر مطران يستظهر اكثره ، وكان بعضنا او اكثرنا يفضل شوقي عليه وكان صديقنا هذا يتلو علينا بعض مقاطع من شعر مطران او بعض قصائده ، وكان يعتز بقصيدته «الجنين الشهيد» ، وهي قصة رائعة تصور مأساة من مآسي الحياة .. ولكن لم يكن لنا — واكثرنا في طراوة العمر ونزق الشباب — لم يكن لنا هذا الصبر لاستيعاب روائع هذه القصيدة التي تربو اياتها على المئتي بيت .. وكنت ممن يؤثر حافظاً

على الشاعرين .. ثم قرأت شعراً لمطران - قرأت قصيدته عن قلعة بعلبك - تلك القصيدة التى يصف فيها ايام طفولته فحفظتها واستهواني شعرة ، ورأيته شاعراً يتحدث باسلوب عاطفي رقيق عن القلب وهواجسه ، وعن نزوات الطفولة واحلامها ، وكان وصفه لهيا كل بعلبك آية في الروعة، وما همني وصف الحجارة والتماثيل والهيا كل وتلك المعجزات الخالدة من البناء التى :

البستها الشموس تفويف در

وعقيق على رداء نضار

بقدر وصفه لارتعاشات القلب - قلب طفلين احب بعضهما بعضاً وهما في فجر الصبى

ايه اثار بعلبك سلام

بعد طول النوى وبعد المزار

ذكريني طفولتي وأعيدى

رسم عهد عن اعيني متواري

مستطاب الحالين صفواً وشجواً

مستحب في النفع والاضرار

يوم أمشي على الطاول السواجي

لا افترار فيهن الا افتراري

نزقاً بينهن غراً لعوباً

لاهياً عن تبصر واعتبار

مستقلاً عظيمها مستخفاً

ما بها من مهابة ووقار

يوم اخلو بهند نلهو ونزهو

والهوى بيننا اليف مجاري

نتبارى عدواً كأنا فراشا
روضة ما لنا من استقرار
نلتقي تارة ونشرد اخرى
كل ترب في مخبأ متواري
فاذا البعد طال طرفة عين
حثنا الشوق مؤذناً بالبدار
وعداد اللحاظ نصفو ونشقى
بجوار ففرقة فجوار
ليس في الدهر محض سعد ولكن
تلد السعد محنة الاكدار
كلما نلتقي اعتنقنا كأنا
جد سفر (١) عادوا من الاسفار

(١) مسافرون حقيقيون

قُبلات على عفاف تحاكي
قبلات الأنداء والأسحار
واشتباك كضم غصن أخاه
بأياد غر من النوار
قلبنا طاهر ولبس خلياً
اطهر الحب في قلوب الصغار
كان ذاك الهوى سلاماً وبرداً
فاغتدى حين شب جذوة نار
حبذا هند ذلك العهد لكن
كل شيء الى الردى والبوار

والقصيدة طويلة ، وكلها على هـذا النسق ؟ فهزتني وحببت الى مطران ، وكنت كما قلت ، أوثر حافظاً

عليه ، ولا افاضل بينه وبين شوقي ، فقد كان وصف حافظ للبؤس الاجتماعي ولصيحاته القومية اثرهما في نفسي ، وكنت الى هذا ، مأخوذاً بصياغة حافظ وجمال ديباجته .

ولا اريد هنا ان افاضل بين الشعراء الثلاثة الذين يمثلون مدرسة مستقلة ، فقد نهضوا ، بعد البارودي ، بالشعر نهضة حية اعادت اليه بعض روحه ورواءه وأنقذته من الاقمطة التي كانت تفرضها عصور الانحطاط التي قام ادبها على بهارج اللفظ وركاكة التعبير وسقم المعنى . نعم ، لست هنا في مقام المفاضلة وبيان اثر كل شاعر فحسبي الالماع الى اثرهم في تجديد ديباجة الشعر وجعله صورة لمنازع العصر ، ونقله من الاغراض الضيقة الى الافاق الواسعة . وفي عقيدتي ، ان مطراناً كان اجرأ صاحبيه

فوثب بالشعر العربي وثبات اوسع ، وهو الى سيره مع شوقي وحافظ في اغراض المديح والرثاء والاخوانيات ووصفه النزعات القومية وملتويات السياسة فقد خص النوازع النفسية وخفقات القلوب ومظاهر الحس والعاطفة بشعر يفيض بالرقة والعذوبة والجمال ، وكثيراً ما نقرأ له قطعة صغيرة في وصف زهرة تفوق بعدلولها ، كما قلت ، قصيدة في مئة او مئتي بيت ، وسر ذلك ان مطراناً لم يجد غضاضة ان يرسم عواطفه المختلجة بينا صاحباه قد تحرجا لزمنهما عن التعبير عن هذه الخوالج . واذا عبرا عنها اعتمدا اللف والدوران لكيلا ينم شعرهما عن خلجات عاطفتهما . اضف الى ذلك ان خليل مطران عاش حياة تختلف عن حياة صاحبيه ، فقد اندمج بحياة الحس ومغريات

الشعور اندماجا وعبّ من كؤوسها حتى الثمالة ٠ وطريقته في صوغ الشعر ان يترك نفسه على سجيتها ، وهنا يهبط عليه الوحي ليرسم اهتزازات هذه النفس ..وهو الى براعته في التصوير اي في رسم الوان النفس يسجل دائماً احساسه الذاتي .. وفي حياته ، والملابسات التي رافقت نشأته ، ونزوحه عن وطنه في سبيل الرزق ، ثم اندماجه بمختلف الطبقات وشتى اصناف البشر ، واشتغاله بالحياة الصحفية والاقتصادية ـ كل ذلك قد جعل من هذا الشاعر الذي كان رمزاً للاخلاق السامية والنبل الانساني رجلا يختلف كل الاختلاف عن الكثيرين من الرجال ، والكثيرين من الشعراء . ولست هنا بمعرض الحديث عن نبله الانساني ولا عن خلقه بل عن ناحية من ادبه وشعره ـ هذا الشعر

الذي كان له أثره في توجيه النفوس نحو الادب الوجداني والعاطفي والذى كان اشبه بالواحات الجميلة التي تركن الى ظلالها القلوب المعذبة والنفوس الظامئة الى تقديس الجمال..

بعد هذه التوطئة الطويلة نخلص الى ان خليل مطران كان يعيش حياتين : الحياة العامة التي يحياها الشعب بمختلف طبقاته والتي عبر فيها عن افراحه واتراحه في المآسي الوطنية والمباهج القومية فوصف نضال الشعب وثورته ضد الطغاة ، وجهاده في سبيل الحرية والاستقلال اي انه لم يترك ظاهرة من ظواهر الحياة الا سجلها في شعره الذى يمكن اعتباره مرآة صادقة لتاريخ مصر وتاريخ الشرق والشرق العربي بصورة خاصة..

وحياته الخاصة التي يصف فيها آلامه وهواجسه ،

ونبضات قلبه في خلواته وسهراته .. وهو مبرّز في وصف الحياتين .. ولكن في وصفه لحياته الخاصة اكثر تبريزاً وأدق شعوراً وأصفى كلاماً .. ومردّ ذلك انه في حياته العامة يكتب اهواء الجماعات بينما في حياته الخاصة يكتب اهواء نفسه ، والانسان اقدر على تصوير نفسه منه على تصوير غيره . ونقف عند هذا الحد من الاستطرادات لننتقل بالقارىء الى احدى قصائده او الى هذه المقطوعات التي تؤلف قصيدة كبرى يشرح فيها حبه عندما كان في فجر شبابه وهي قصيدته « حكاية عاشقين » فنراه لا يرسم صور حبه وغرامه بل حب وغرام الكثيرين من العشاق .. وبذلك نعطي صورة ضئيلة من حياة مطران في شعره الذاتي وحياته الوجدية ٠

- ٣ -

الشاعر الحساس هو هـذا الانسان المجنح الذي لا يستطيع ان يعيش طوال حياته دون ان يخفق قلبه للحب - لحب الطبيعة والحياة ، لحب النغم والزهر ، لحب المرأة التي تتجلى فيها كل افانين الجمال .. وما كان لخليل مطران - وهو انسان حساس - ان يشذ عن هذه القاعدة ولاسيما وهو في فجر الصبا وفي اول تفتحه للحياة .. احب فتاة وهو في السادسة والعشرين من عمره فخلقت منه شاعراً خلد شعره على الدهر ، وقـد وصف حبه لهذه المخلوقـة الجميلة في مقطوعات وقصائد شعرية تؤلف « حكاية عاشقين » وهي حـكاية تضطرم فيها العواطف اضطراما ، تبدأ حوادث القصة باللقاءة الاولى وبصور لنا كيف تمت

المعرفة ، فقد كانت الحبيبة في حديقة الازبكية تخطر بين وردها وزنابقها وتأمل جمال الطبيعة ومفاتنها الخلابة واذا نحلة تلسعها . ماذا ؟ لقد ظنّت الوجنة ورداً فجاءت لترشف الشهد .. رأى الشاعر هذا المنظر فأوحى اليه قصة بدأت ببيتين من الشعر وانتهت بأكثر من مئة بيت. فقد وصف شكوى الحسناء من ألم اللسعة ثم رأى فيها ما يبرد غليله . نعم ، انه انتقام آلهي للتي تودّ قتله ... فقد كان الحب في اول ضرامه ، وكان الشاعر يحس وقدة هذا الضرام ،ومع حبه لها ، وشغفه بها فقد رأى في هذه اللسعة ما يبرد غليله ويطفيء حبه !..

ثم يذهب في رواية قصة هذا الحب وصفاً فيه لون من عبث الطفولة ، ولا بأس ان نمر بهذا العبث ، فقد

جرت للشاعر ، في اللقاءة الاولى والثانية ،مقامرة هزلية وكثر الدين على العاشق ، فطولب به فمضى وأبى الا ان يرسله في صك . وقد كان الصك قصيدة شعرية ختمها بقوله :

ادفعها في الموعد مع الربا المعتد
لـ ... (١) الحسناء فريدة النساء
بحسنها الفتان والعقل والبيان (٢)
وذا اعترافي ولها صكّ عليّ دلها
اكتبه وأملي قبل حلول الاجل

---

(١) لم يذكر اسم العاشقة وان كانت من خلّص اصدقائه .

(٢) ويدل وصفه هنا على انها من المثقفات الاديبات ، وبديهي ان تمتزج روحه بروح اديبة تفهمه .

ان يعلنوا افلاسي بين جميع الناس
لكن اذا الجيب خلا يوماً فان القلب .. لا

ثم يذهب به الخيال فيتمنى لو ان منطاداً طار بهما الى اوج العلاء وأتيح لهما ان يطلقا فرحهما في عناق طوال الدهر – في هـذا الفضاء الفسيـح ليذوقا الهوى سكراً عجيباً – خمرته من الطلاقة والضياء ، اي ليذوقا طعم الحب الابدي .. ولم يفكر بهذه الرحـلة في عرض الفضـاء الا لينجو من العيون الحاسدة والقلوب الحـاقدة التى كانت تأخذ عليهما خلواتهما واجتماعاتهما الحلوة البريئة ..

وحكاية هذه القصة طويلة .. فما من حالة من حالات الوجد المبرّح الا ولها مقطوعة او قصيدة، وقد كتب في هذه المقطوعات الشعرية شغفه بها ، وظمأه لرشفات الحب

الندية ، وشكواه ، وعتابه ، ولم ينس ان يرى في حبه هذا كما قلت ، النزوات التي نراها عند الاطفال في عبثهم فيما تبها ان غضبت ، ويعترف ان في تصرفاته لوناً من عبث الاطفال فيسترضيها ،ثم يصف في قطعة ثالثة ملامح جمالها في (ليلة سعد) بسم له فيها الحظ ، وارتوى بعد ظمأ طويل وصف قوامها وعينيها وهدابها ثم هذه العبوسة التي تحلو لديه ، ثم وصف حبه وكيف كان يكتمه لا لخوف بل حرصاً على سمعتها من اللوام .

كتمت هواك دهراً لا لخوفٍ ... وما انا من روعه الحمام
ولكني حرصت عليك منهم ... ولو ادى بمهجتي الغرام
وكم عاتبت فيه النفس نوماً ... فان عوتبت راعني الملام
كجرحٍ قد الطفه بلمسي ... وان هو مسه غيري أضام

الى ن قال :

فما انسى تلاقينا هجيماً — بلا وعد كما شاء الهيام
كأنا شعلتان اذا اعتنقنا — على ظمأ فلم يروَ الاوام
وما ان تنطفي نار بنار — فيشفينا التعانق واللزام(١)
رعاه الله ليلاً فيه ذقنا — نعيم السهد والرقباء ناموا
فكان من الظلام لنا ضياء — وكان من الضياء لنا ظلام

بعد ان قضى ليلة مع الحبيبة عدّها من اسعد ايام حياته انتقل بها الى جنة الحب « فمثل تلك الرواية الازلية ـ رواية آدم وحواء . فأتمر بأمرها ، واقتسما الثمرة الشهية ... فما تعليل آدم هذا العصر لاقتراف هذه الخطيئة ؟ هنا تبدو لباقة الشاعر في تصوير خلجات النفس ونبضات القلب

---

(١) الملازمة

واقرار مبدأ الحب بدلا من الاعتراف بالخطيئة فيقول:

ذنب اتيناه مشاطرة والذنب شفع وهو منشطر
لا بأس من فقد النعيم به وقد استعاضت بالهوى البشر
حواء فتنتك النعيم لنا لا الماء والاطيار والزهر
حواء مااغويت آدم بل أحببته والصبوة العمر
من لم يحب فما الصفاء له صفو وما اكداره كدر
ويرى الحياة ولا يعيش كما مرت على مرآتها الصور

وهكذا ، فقد خالف العرف والاتجاه ، ورأى في الغواية حياة لا موتاً ، اي ان آدم الجديد سن في الحب سنة تخالف الذين اخذوا على آدم القديم غوايته لحواء !.

* * *

ومرة مطران في جنة الحب سنوات .. كان الى اعماله

المرهفة ينعم بصفو الحياة .. كان يخلو الى حبيبته في ساعات الفراغ فيسمعها اشعاره ويرتل لها ماينظمه لها في خلوات تطول وتقصر ،وكان حريصاً على سمعة حبيبته من الالسنة الطويلة التي تقذف المحبين بالحق وبالباطل .ولكن عبثاً كان يتقي هذه الهجمات .. فكان يقع بينهما ، من جراء هذا اللغط ، ما يقع بين المحبين من سوء تفاهم ، فيكتب لها معتذراً ، ويتوسل اليها ان تكون منصفة ، وان لا تجني عليه لقالة سوء . ويعود فيذكر ايامه معها ، وماقاساه من لذعات الحب . وان اخلاله بوعده لم يكن الا لمرض وان ظنونها لم تكن في محلها ، وقد بات طوال الليل يعنف نفسه لارتيابها في هواه .

أبيت طوال الليل والداء مسهدي
أعنف نفسي وهي لم تقترف جرماً
على ذكر عهد كان لي منك موعد
تجديده لو لم تحل دونه الحمى

ثم يذكر هيامه بها وحبه لها بعد أن يصف اعراض الحمى التي انتابته فيقول:

أحبك حتى لا سرور ولا منى
ولا شمس ، الا أن أراك ولا نجما
أحبك حتى ينكر الحب رسله
«جميلا» و«قيساً» والاولى استشهدوا اقدما
ولو لم تكن في الموت سلوى أخافها
لاحببت حتى الموت فيك ولو ذما

وهذا نهاية الحب عند مطران الذي أعطى كل ما احتواه قلبه لهذه المخلوقة النبيلة التي ملكت عليه كل مشاعره .

واستمر بعد ان برىء من الحمى ، ينشدها قصائده من الغزل الرقيق الذي يصور خلجات قلبه ويذكر أيامهما الحلوة ، وسهراتها الماتعة ، وهذه النزهات اللطيفة في الجزيرة ، وعرض النيل ، واحاديثهما عن الحب والوجد ، عن ضياء القمر ، عن زرقة الماء ، عن الروضة الغناء ، عن قلبيهما الطروبين ، عن هذه النزوات التي تعكر صفو علاقتهما واجتماعهما ، عن غضبه وألمه . . يا لثورة الشاعر اذا نزا جرح حبه ، فالدنيا في نظره مظلمة ، والروض قد عراه الذبول ، والزهر يفتر له كذباً ونفاقاً ، والطير ينوح

لا يلامه . وما زال يشرح آلامه للحبيبة حتى رقت له وبكت ، وهي شاعرة الروح والاحساس ، فكاشفته بما يعتلج في ضميرها فبكى لبكائها وصوّر هذا البكاء أروع تصوير .

ان قصة حب خليل مطران طويلة ، كتبها بدموع قلبه وتفتحت شاعريته بشتى ألوانها على قصة هذا الحب . نعم ، انها حكاية طويلة . حب وهيام ، وجد وغرام، ولقاء وفراق ، وصدّ وعتاب ، وقد ظلا سنوات يشربان كؤوس الحب . ثم وقع الفراق . تركته الحبيبة وسافرت واجدة على محبها لوشايات سمعتها عنه . فثار قلبه من جديد ، وعاذا يروّح عن نفسه بغير الشعر . كتب اليها قصيدة من وقدة القلب المحترق . مسكين شاعرنا الشاب ، لقد استبد به

اليأس ، وغلبه الحزن ، ولم يعد يصدق ان ذلك العهد الجميل من حبه قد انقضى وتوارت ظلاله الوارفة . وبدأ يرسم صوراً جديدة من ذكريات اللقاء ، فذكر سويعات انه بقربها .

فيا وردتي ماذا أحالك جمرة ويا وجنتي ماذا أحالك نارا
جزى الله اخوانا وشوا بي عندها فكانوا السعدي حين تم عثارا

وأخذ يستعيض عن هجرها وبعدها بوردة كان يسقيها بدمعه ، وهو يضمها ويشمها ويقبلها كل يوم .. وكان يستمع الى نجواها ـ نجوى وردته في الليل والنهار .

يا لقلوب الشعراء ما ارقها ؟. فالنظرة الخاطفة قد تثيرهم وقد تلعب دوراً كبيراً في حياتهم .. وقد عاش مع وردته فترة من الزمن يناجيها ، اي يناجي حبيبته ، يذكر ملامحها :

ياوردة يرتاح جانبها وان دميت يداه بشوكها الممدود
عودي فنقتطف الازاهر غضة غراء حلاها الندى بعقود
عودي نطر كفراشتين تنقلا علين يرقصنا الصبا بنشيد
متعانقين اذا انتبهنا رابنا ظلان معتنقان غير بعيد
عودي فنجتنب المجامع رغبة عن كاذب من أنسها مفقود
ونطالب الخلوات بالانس الذي فيه شفاء الخاطر المكدود

وفي الفترة التي وقع بينهما الجفاء كتب عدة قصائد في العتاب ، ففي قصيدة « الشاعر والطائر » حلق في الاجواء وتمنى ان يكون شدو الطائر الطليق ليغني انشودة الحب الازلي ، فلم تعد الالفاظ لتعبر عن مكنونات قلبه ، فهو في ألم ممض . . مسكين خليل مطران ، فقد اعطى في شبابه كل حياته للحب بالرغم من مواضعات الحياة

التي كانت تفرض عليه أقسى اعبائها .

احببت حسناء ذات دلّ تُهوى المنى في جمالها
لو أبصر الراهب المصلي طلعتها عاد والهـا

* * *

رأت غرامي فعاهدتني على الهوى الطاهر المباح
ثم جفتني وباعـدتني بغير اثم ولا جنـاح

* * *

فاعتمت بعدها حياتي من ذلك الطالع السعيد
وصرت أمشي الى مماتي في ظلمة اليائس الطريد

لقد داخله اليأس ، وأخذ في قصيدته هذه ، يخاطب الطائر المغرّد ويرجوه ان يعيره جناحيه ليطير فراراً من الناس ، فلم يعد يحتمل رؤية الناس ، فهو يريد ان يرى

الكون من عل ، اي ان يرى الدنيا بجبالها وارضها وعماراتها ظلالاً باهتة . . انه يريد الفرار الى عزلة نائية ليتمتع بالنور والطبيعة .

شفاني الله من جنوني   والبعد عن خلقه شفاء

ولكن كيف الشفاء من جنونه وحبيبته ليست تقربه ؟

لو كان حبي هنا بقربي   لكان حقاً هنا الهناء
لكنه غائب وقلبي   باكٍ من الهجر والجفاء

وبينما هو في هذه الثورة النفسية ، يقاسي ألم الفراق ، اذ بنباء يتلقاه فيثيره ويبكيه ، فقد جاءته الاخبار تقول ان حبيبته مريضة ، وانها مصابة بداء عضال ، وانها في مرتفعات جبل لبنان ، وقد هم بالسفر ليكون بقربها ، ولكن صديقاً عزيزاً عليه نصحه بالتريث ، فقد يهيج سفره داءها . .

ولكن كيف يصبر على البعد ، ان حبيبته قريبة من الموت وهو يتمتع بالحياة . . لا . ابداً . .

لئن كان موت في مقبّل ثغرها
سأرشفه منه شهياً مطيبا
خلقنا لكي نحيى ونقضي في الهوى
أليفين يأبى الحب ان نتشعبا
فان ساءنا دهر أثيم بفرقةٍ
فزعنا الى قبر رحيم فقرّبا

وخشي عليه اصدقاؤه من صدمة النبأ فجاؤه بنبأ جديد يدحض نبأ مرضها ، فبشروه بشفاء الحبيبة ، ووصف فرحته بقصيدة جديدة غمز فيها دجل الاطباء وشعوذتهم وكيف يوهمون المريض بما ليس فيه :

الحمـــد لله انها سلمت ... وافلتت من مخالب الخطر
لا كسل في اتقاد عينها ... ولا اصفرار في وجهها النضر
ولا اغبرار على ابتسامتها ... من طول ليل العناء والسهر
عاد اليها تمام رونقها ... وليس فيه للداء من اثر
وجه كتفاحة الشآم اذا ... ما رويت من مدامع المطر
ومبسم تبسم الحياة به ... عن قانئ اللون ساطع الدرر

هذا هو الفصل الاول من « حكاية عاشقين » لخليل اما الفصل الثاني ، فهو فصل حزين مكتئب تفيض اللوعة وتنهمر الدمعة من كل كلمة من كلماته ، فقد اشتد المرض على الحبيبة فأودى بشبابها ونعيت الى محبها فبكاها بعدة قصائد حزينة ، وقد تمنى لو نزلت الرزية به ولا يصدم بهذا الخبر . . وفي بكائه وشجوه اخـــذ ذكر ايامه معها ،

وقصيدته «مثال في مرآة» من اجمل واشجى قصائد هذه القصة ، فيها روعة الوصف ودقة الحس ، فتشعر وانت تتلو مقاطعها كأنك تشهد مأساة برع الشاعر في تصوير نبراتها الحزينة .

لقد اسودت الدنيا في عين خليل مطران بعد موت حبيبته وظل مدة من الزمن يتوهم انه مصاب بالداء الذي ماتت به حبيبته .

حبيبة قلبي ان تكوني سبقتني
فحزني لم يُسبق وما للهوى مثلي
فقدتك بالداء الذي هو قاتلي
فان ساءنا بالفصل اسعد بالوصل

ومرت به الايام ولم ينسها بل كان يبكيها كلما

عرض ذكرها له ، وكيف لا يبكي حباً دام سنوات ست ففي ليلة من الليالي سمع قينة تغني وتضرب العود ، فهاجه ذكرى حبيبته ، وأخذ يطلب الى القينة ان تنشده لحن الالم لعل فؤاده يستعيد من هذا اللحن الحزن جناحين ، يطير بهما الى لقاء محبوبته . نعم ، ظل يذكرها في كل مناسبه تعرض له من مناسبات الحياة ، في نشوته وفي ألمه ، وكما ذكرها حين سمع غناء القينة وهي تضرب العود ، ذكرها حين اشتد به المرض فكتب قصيدة من الشعر الباكي عنوانها « الأثر الباقي » . تقرأ فيها نفساً معذبة وقلباً كاد يسلو الحياة ويعافها .

يا قلب مات بك الغرام فعلى بقيتك السلام
ما تنفع الكأس التي بقيت وقد فني المدام

ومضى شباب النفس ان شبابها لهو الهيام

وهنا يصف حالته :

الله في صدر وهى وتقوست منه العظام
خاوٍ كجوف الغار تملأه المخاوف والظلام
الا سراجا حائلا فيه ينير بلا ابتسام
روح تضيء على ضريح في صميم القلب قام

عاش سنوات في صميم الذكريات الحزينة ، لا يرى اثراً من آثارها الا بكى وسجل بكاءه في قصيدة ، فقد وجد يوماً وهو يقلب ملابسه منديلاً ابلاه مرور اعوام عليه . ولم يسلم منه الا الموضع الذي طرّز عليه حرفان مشتبكان من اسم حبيبته فكتب قصيدة يصف اثر ذلك في نفسه ، ثم كان لكل فصل من فصول السنة اثره في

إثارة الذكرى ، في قصيدة « دمعة على فقيدة » يصف عودة الربيع بما يحمل من زهر وورد .. ولكن ما الربيع عنده ؟ انه يرى فيه كآبة الخريف .. ان زهره شوك وانهره دموع .. ليس للربيع اي بهجة في نفسه بعد فقد حبيبته .

من كان مفقود الحبيب   فلا شباب ولا ربيع

ثم يختتم هذه القصة الحزينة ، وهي قصائد ومقطوعات من الشعر ، بمقطوعة يصف حبه الذي استحال عبرة وحسرة :

سررت في العمر مرة   وكنت انت المسره
كانت حياتي روضاً   وكنت في الروض نضره
وكان غصنا شبابي   وكنت في الغصن زهره
وكان فكري سماء   وكان حبك فجره
كان حسنك يوحي   الى يراعيَ سره

وكان لحظك يهدي الى بيـاني سحره
وكان ثغرك يمـلي على سماءي ذره
وكان طيبك يهدي الى ثنائي نشره
وكنت للروح روحا وكنت للعين قره
قد « كان » هذا ولكن مضى وأخلف حسره
فبت لا شيء الا حالين : ذكرى وعبره

وبهذه المقطوعة تنهى « حكاية عاشقين » او قصة قلبه الذي علق بحب فتاة رماها القدر بداء السل فماتت وهي في فجر الصبا ، فكان حزنه عليها كبيراً . وظل يذكرها كلما انشد شعراً . وهكذا ، نجد في هذه القصة الشعرية ، وفي قصته الثانية « الجنين الشهيد » و « تذكارات الصبى » وغيرها من القصائد ـ نجد في شعر خليل مطران صوراً

رائعة من حياته الشعورية ، وقد اردنا من هذا العرض ـ لم نعرض الا قصيدة واحدة تشرح حالة من حالاته النفسية في الوجد والحب والالم ـ اردنا ان نعطي صورة من شعر خليل مطران في نزعته الجديدة وخروجه على الطريقة الكلاسيكية التي كانت مذهب الكثيرين في ذلك الوقت اي قبل نصف قرن من يومنا هذا .

ان دراسة شعر خليل مطران ، في شتى مراحل حياته تحتاج الى دراسات طويلة ومباحث متعددة ، وحسبي هنا هذه الالمامة السريعة عن طور من اطوار حياته ـ طور الصبا والشباب ، ولا شك ان شعره في الفترات التي اعقبت هذا الطور ، قد تطور واستوعب اصفى وادق واعمق ما في الكون والحياة ، وليس بالكثير على هذا الشاعر الفذ ان

يحتل زعامة الشعر مع شوقي وحافظ ، « واذا كان حافظ قد عرف بسرعة البديهة وحلاوة النفس وصفاء العبارة ، وشوقي ببراعة الغناء وقوة الاسلوب وحسن التصوير ومطران بصحة الفكرة ووحدة القصيدة وصدق النظرة والثقافة الشاملة » فقد استطاع ثلاثتهم ان يثبوا بالشعر العربي هذه الوثبة الجديدة التي انقذته من بهارج اللفظ الى روعة المعنى وان يعبّدوا الطريق امام الجيل من شعراء المدرسة الحديثة .

* * *

لقد شعر خليل مطران ، بعد موت شوقي وحافظ ، انه اصبح وحيداً في عالم الشعر . وقد كان يؤلف معهما الثالوث المقدس لزعامة الشعر العربي الحديث ، فتساءل

ما بقاؤه بعد ان فارق صديقيه العزيزين :

الصاحبان الاكرمان توليا
فعلام بعد الصاحبين بقائي ؟
لم يتركا برداهما غير الاسى
لاخيهما ما دام في الاحياء
الطيب المحمود من عمري مضى
والمفتدى بالروح من خلصائي

* * *

يا صاحبي غدوت منذ نأيتما اجد الحياة ثقيلة الاعباء
لا ليل عافية هجعت به ، ولا يوم نشطت به من الاعباء

وهذا منتهى الوفاء لروح الصداقة ولرسالة الشعر .

وهكذا ، فقد انطوى بموت حافظ وشرقي ومطران ومن

قبلهم اسماعيل صبري والبارودي ـ انطوى عهد انبعاث الشعر بعد ان ظل قروناً في الاقمطة التي فرضها ادب عصر الانحطاط ، وكان عصرهم ، كما ألمعنا ، فترة الانتقال من الكلاسيكية الى الابداعية ـ مذهب شعراء الشباب من المدرسة الحديثة ـ هذا المذهب الذي آمن به خليل مطران ، فكان من أعته ، وفتح بابه على مصراعيه ، وجميع من ولجه يذكرون لفقيد المذهب الابداعي فضله في ثورته على القديم ، وتجديده رسالة الشعر التي اراد من ورائها ان يكون الشعر العربي مرآة صادقة لتطورات العصر بمختلف نوازعه واهدافه ومراميه .

ملخص :

الادب العربي المعاصر

حين نقول الادب المعاصر نريد أدب العصر الذي نعيش في خضمه ونحيا في ظلاله ونستمتع بروائعه ونرى انفسنا في كلماته ـ في شعره ونثره وفي قصصه وحكاياته ..

وحين نقول الادب العربي المعاصر نريد الادب الذي ينتجه ادباء مصر ولبنان وسورية والعراق وادباء المهجر وسائر الاقطار العربية .

فما هي سمات هذا الادب ؟

ما لونه وما اثره في نفوسنا وفي عقولنا وفي عواطفنا ؟

ثم ما هي اتجاهاته ومراميه ؟

وهل هو صدى ادبنا القـديم في عصوره المختلفة ام صورة لما يجيش به هذا العصر من تيارات واندفاعات ؟

هـل هو يصور المجتمع العـربي في ماضيه ام يصور حاضره ؟

هل يصف مايكابده الانسان العربي من بؤس وشقاء .. وما تكابده الاوطان العربية من ضنك وبلاء ، ام هو بعيد عن تصوير هذه المظاهر ؟

وفي فيض من هذه الاسئلة نسأل ايضاً هل يصور ادبنا هذه الخلجات الانسانية التى تحسها الامم والشعوب

في نضالها الدامي، وكفاحها المرير ضد الطغيان والجبروت: أم لا يزال أدبا محدود الافق، لا يعبر هذا التعبير الصادق عن تلك الاحاسيس والنزعات - نزعات الفرد كانسان، وفورات الجماعات في حالتي هدوئها واضطرابها .. في دعتها وثوراتها ..

قبل الاجابة على هذه الاسئلة نريد ان نرسل كلمة سريعة تحدد معاني الادب، كما يحددها اكثر من اديب عرضوا الى حقيقة الادب على ضوء المفاهيم العالمية.

فالادب لم يعد اليوم صياغة لفظية ولا التماساً لغريب المعاني، وانما هو نقد للحياة ومراجعة للواقع وفهم .

هو تصوير للمألوف وجمع لعناصره في صور يمكن أن تعيش بفضل صياغتها وصدقها.

هو خلق نماذج بشرية نجد فيها انفسنا (١)

وهو الى هذا : فن جميل ، غايته تبليغ الناس رسالة ما في الحياة والوجود من حق وجميل بواسطة الكلام ، فكل ما ينتجه فن الادب الصحيح في اية لغة من اللغات لا غاية له غير هذه الغاية (٢) وقـــد بعث الاديب ليقف على ما يستتر تحت ظواهر هذا الوجود من حقيقة ليرى هـــذه الحقيقة بنفسه ثم ايرينا اياها ، ورسالته هي الكشف للناس عن الحقيقة بلهجة العصر الذي يبعث فيه (٣) .

ويربط اديب افرنسي حياة الاديب بحياة امته فقال (٤) :

ان الاديب المشتغل بمسائل تتعلق بمستقبل امة ، يجب

١ ـ دوهامل في مقدمة كتابه دفاع عن الادب
٢ ـ الدكتور هيكل ثورة الادب ص ٢٦
٣ ـ الفيلسوف الالماني نيتشه
٤ ـ جان جوريس

ان تطابق حياته فكره ، وتمثل اخلاقه مبادئه ، بل يجب ان يهب للمبدأ المستخلص حياته . . والا خان الفكرة وخان الامة . . وجرد الشعب من اقدس العبادات البشرية ، وأقدرها على رقيه . . الا وهي عبادة الانسان الذي عاش وفكّر ثم استشهد ومات في سبيل مثل أعلى .

وفي هذا الصدد يقول استيفان زفايج :

« ان الادب ليس هو الحياة فقط ، بل لا يعدو ان يكون وسيلة للسمو بها وادراك مأساتها بصورة اكثر وضوحاً واكثر تفهماً .

وقد حدد بول سارتر زعيم الوجوديين مفهوم الادب بقوله :

« ان الاديب هو الذي يكون صورة حية للمجتمع

الذي ينتسب اليه : في اعماق هذا المجتمع يجب ان يغمس ريشته ، ومن واقع هذا المجتمع يجب ان يستمد تجاربه ، وحول هـــذا الادب يجب ان يدور بخطوط اتجاهاته الفكرية ، وعلى الاديب ان لا يكون بمعزل عن مشكلات عصره ، ليستطيع ان ينفذ الى اغوارها بشعوره ليصدق الاحساس بها والتعبير عنها حين يتحدث الى الجماهير ، وينفذ الى اغوارها بفكره وعلمه وثقافته ليشارك في البحث عما تحتاج اليه من حلول . .

وتروقني كلمة مكسيم غوركي في هذا الصدد فهو يصف رسالة الادب وصفاً آية في الدقة حين يقول :

« ليس فن الادب محصوراً في تعقب اغلاط البشر ومساويهم بقدر ما هو متوفر على السمو بالانسان فوق

مظاهر حياته وتخليصه من قيود واقعيتها وحقارة مألوفها واعتياديتها ، بل من شأن الادب وعمله وواجبه ان يصور الانسان امام نفسه لا في صورة العبد الرق للظروف والاحوال ، ولكن في صورة السيد القاهر من فوقها المتغلب عليها ، المحدث ما يشاء فيها ، الطليق الارادة فيما يبتغيه فيها ، ومنها كان الادب مجدداً ثائراً ، ينتقل بالناس من حال الى حال ، ويخرج بهم من شأن الى شأن »

وبعد ، فلن نسترسل في سرد هذه اللمحات التي جاءت على لسان ادباء يذهبون مذاهب مختلفة في فهم رسالة الادب . فالادب . في مفهومه الصحيح : وفي عرف الكثيرين « ليس ان يفتن الاديب في تصوير العواطف البشرية فقط ، وفي عرض فواجع الحب ومآسي الهوى ،

وفي رسم الاخلاق والعادات الشائعة في بيئة رسماً تحقيقياً يسجلها فى العمل الادبي ويكفل لها الخلود .. ليس غرض الادب في عقيدتهم تجميل الحياة . . واضفاء حلة من الجمال الشعري عليها ، ورفع مستوى العواطف والغرائز وصقلها وتهذيبها والتلطيف من حدتها فقط - بل يرون الى كل ذلك ، ان يكون الادب اداة حياة لرفع مستوى الحياة والنهوض بالانسان وبالشعوب الى ارقى مراتب الكمال الانساني » .

بعد هذا الاستطراد ، ندخل الى صميم الموضوع ، وموضوع حديثي : لمحات سريعة عن الادب العربي المعاصر . .

* * *

قبل ان نتحدث عن الادب العربي ككل لا يتجزأ . . لا بد من تقسيمه هذا التقسيم الجغرافي . . فنحن مضطرون ان نقول الادب المصري ، والادب اللبناني ، والادب السوري ، والادب العراقي ، والادب الحجازي ، كما كان اسلافنا يقولون الادب الاموي ، والادب العباسي ، والادب الاندلسي . .

ولنبدأ بالادب المصري

وللادب المصري ، تاريخ طويل ، فقد تعاونت تيارات مختلفة على خلقه . . منها ما له صلة بحياة المجتمع وبالثقافة الاوربية . . نعم تعاونت تيارات مختلفة على تكوينه وخلقه أظهرها التيار الديني ثم التيارات القومية والتيارات الاجتماعية . . وحين أقول التيار لديني أريد ما

كان ذا صلة بالازهر . . فجامعة الازهر ، هي البيئة الرحبة التي انبثق من اروقتها هذا الاشعاع الديني الذي غمر العالم الاسلامي كله · واذ كانت لغة القرآن ، ولا تزال ، هي مادته الاولى في التدريس ، وكانت اللغة هي الاداة المعبّرة عن العلوم والفنون والآداب . . فكان من البديهي ان يصطبغ الادب العربي ، في بداية هذا القرن وقبله ، بفترة غير طويلة من الزمن ، باللون الديني ، وأن يكون لهذا اللون أثره الموجّه في نفوس الكثيرين من الادباء المصريين . . وهكذا ، فقد ظلّ الادب العربي في مصر ، منذ منتصف القرن التاسع عشر الى بداية القرن العشرين ؛ يعتّ بصلة وثقى الى الماضي ، لا ينظر الى الامام الا بتحفظ ، واذا نظر فتلك النظرة الحذرة التي تحسب لما يقذفه الغرب

من شرور الف حساب !.. وهو ، في صميمه يقوم على التوجيه ، والتمسك بما تركه السلف لاعتقاد اكثرهم ان لنا بما تركه السلف الكثير مما يغنينا عن ادب الغرب وفنه ، وحتى ، في رأي بعضهم عن علومه !

وقد كان بعضهم يريد ان يقيم اسواراً تصد كافة التيارات التي تأتينا من الغرب .. لكن تلك المحاولات قد ذهبت سدى .. ذلك لان الآراء والمذاهب التي جاءت من الغرب قد أخذت تجرف كل شيء .. ولم يستطع ان يقف « الازهر » دون اندفاعها ، وكان لا بدَّ له من ان يأخذ بروح التطور - اي ان يأخذ الكثير من علوم الغرب في مناهج تدريسه ، وفتح اروقته لاساتذة اعلام قد تذوقوا علمَ الغرب وأدبه ، وبديهي ان ينقل هؤلاء الاساتذة

اساليب الغرب ومناهجه في التدريس ، وأن يطبعوا افهام طلابه بطابعهم ، وان يفسحوا لهم المجال ليسيروا في نفس الطرق التي سار عليها اعلام المفكرين المسلمين كالكندي والغزالي وابن حزم والشهرستاني ومن اليهم ممن كانت الجدة والاجتهاد طريقتهم في البحث . . ففتحوا للطلاب الازهريين نوافذ كانت مغلقة ـ هي نفس النوافذ التي كان يطل منها الاسلاف على دنيا العقول المتحررة . . اي أخذ الازهر ، في السنوات الاخيرة ، يحقق رسالة جمال الدين ومحمد عبده والمراغي وعبد الرازق ، وينتقل من النطاق الضيق الى الافق الواسع . . وبتنا نأمل ، والازهر معقل من معاقل اللغة في الشرق الاسلامي ، ان يصبح نتاجه جزءاً متمماً للانتاج الفكري الذي يؤلف وحدة كاملة

من الادب المصري المعاصر في شتى فروعه .. فمن صميم البيئات الازهرية خرج اعلام لعبوا ادواراً خطيرة في تاريخ مصر السياسي والعقلي لعلّ ابرزهم الامام محمد عبده وسعد زغلول وطه حسين .. ونحن لن نستطيع ان ننكر اثر الازهر في دعم اللغة العربية كأداة حية من ادوات الادب وتخريج غير واحد ممن عنوا بجمال الاسلوب وصفاء العبارة كالمنفلوطي والزيات .

فالظاهرة التي يجب ان يسجلها الادب اليوم ، هي ان الازهر أخذ يقترب بنثره وشعره ومباحثه من الادب الحي الذي يتبلور بأدب الغرب ..

فاذا انتقلنا بالادب المصري ، الى صفته الثانية ، نراه يعيش في اجواء بعيدة عن الجو الديني . واذا عرض لهذه

الجواء فبأسلوب يختلف كل الاختلاف عن اساليبهم وطريقتهم ونهجهم ..

تحرر الادب المصري المعاصر او كاد ، من الكثير من القيود القديمة . . وأخذ يسير ، جنباً الى جنب ، مع آداب الامم الحية ، يقتبس منها ويحتذيها وينقل عنها . . يبدو هذا واضحاً في شعر الشعراء وأدب الكتاب ونقد النقاد وفي كتب المؤلفين وهذه الدراسات والمباحث التي يكتبها الجامعيون .. انهم ، او اكثرهم ، يسيرون هذا السير الواضح الذي يدنيهم من كتاب الغرب .

وهو ذو ألوان مختلفة . . فالادب القصصي مثلاً قد اصطبغ باللون المحلي : وصف القرية المصرية والبيت المصري - البيت القديم بتقاليده والبيت الجديد بمستحدثاته

.. وصف رجل الشارع ببؤسه وشقائه .. وابن القصور بترفه وبذخه وخيلائه .. وكان للنواحي السيكولوجية اثرها في كتابة غير واحد ممن عالجوا هذا الفن فلم يكتفوا بوصف المظاهر بل نفذوا الى الاعماق ، واستخلصوا العظة البالغة التي توجه القارئ توجيهات صادقة نحو الخير والحق .. أي لم يستهدفوا مذهب « الفن للفن » بل اتخذوا من الفن ذريعة لوصف المجتمع .. ووصف الانسان .. والنفس الانسانية في شتى مظاهرها .. وحاولوا ان ينجوا نهج أكابر قصصي الروس والافرنسيين فجاروهم الى حد ما ، وكانوا في ناحية الاقصوصة ابرع منهم في ميداني القصة والرواية .

وما نقوله عن القصة ، نقوله عن الشعر . فقد تناول

الشعر المصري اغراضاً مختلفة . . فمن عهد البارودي . . او ـ وهذا الاصح ـ من بداية عهد شوقي وحافظ الى يومنا هذا اقتحم الشعر الكثير من الاغراض . بعضها قومي وبعضها اجتماعي . . وفي كلتا حالتيه شعر موجه . . ولم يهمل ، الى هذا ، النواحي الذاتية ، ووصف طبيعة مصر ، وأرض مصر ، وماضي مصر وما الى ذلك من اغراض الشعر .

لقد انتقلت المذاهب الشعرية في الغرب الى افهام شعراء مصر ، ولاسيما الشباب منهم ، فقبسوا منها بعض الاتجاهات وتأرجح اكثرهم بين هذه الاتجاهات وبين جو القصيدة العربية التي لاتزال ذات سيطرة عليهم . . ومن هذا المزيج اخذ الشاعر المصري يتجه اتجاهات متباينة في الكثير من منازعه !

واذا تركنا القصة والشعر فعلينا ان ننتقل الى أفق أوسع .. الى الانتاج الفكري بشتى الوانه .. فقد اضطلع الادب المصري في هـذه الناحية بجهد كبير .. واتسع أفق التأليف في جميع النواحي .. في الادب الخالص ، في التاريخ ، في الفن ، في الدراسات الاجتماعية .. في المباحث النفسية فأضفى على هذه التيارات لوناً من أزهى الالوان .

ان زعماء الحركة الفكرية الذين اصطبغت ثقافتهم بثقافة الغرب لم يمنعهم ان يكونوا وثيقي الاتصال بالادب العربي القديم فاستطاعوا أن يكونوا من هذا المزيج لوناً من الادب الهادئ ، الرصين الذي تلتقي في رحابه شتى الثقافات التي تجارى نزعة التطور ـ لقد آمنوا ان الادب لا يمكن ان يزدهر ما لم يندمج بغيره من آداب مختلف

الامم على ان لا يفقد ذاتيته وخصائصه .. واستطاع - اريد ادب مصر المعاصر - ان يقتبس الكثير من ادب الغرب ، وان يلبس بعض أرديته دون ان يقطع صلته بخصائص الادب العربي القديم وان يكون له من كل ذلك لون خاص يجعله صورة مما يحسه القارىء العربي في الكثير من خلجات الحياة . والادب المصري في القرن العشرين يتمثل اصدق تمثيل في انتاج طه حسين وهيكل والعقاد واحمد امين وتوفيق الحكيم وتيمور والمازني من اعلام الكتاب والادباء ، ومما نظمه شوقي وحافظ ومطران ومحرم وعلي محمود طه وابراهيم أجي وغيرهم من الشعراء .

ولا أتوسع اكثر من هذا ، فكتاباتي لمحات عابرة ،

وفي حدود هذه اللمحات انتقل الى الادب اللبناني والى سائر أدب الاجزاء العربية .

الادب اللبناني

وتاريخ الادب اللبناني مليء بالمفاخر .. فقد كان بدء الثورة والانطلاق في حياتنا العقلية ، هذه حقيقة لاريب فيها .. نزع ادباء لبنان ، حتى منتصف القرن التاسع عشر نزعات تحررية . وكانوا حريصين كل الحرص ، في العهد العثماني المظلم ، على تراث اللغة العربية ، وقد انتشروا في شتى اقطار الدنيا يحملون في صدورهم هذا الحب الوامق للغة القرآن .. تجلى ذلك في ادب اليازجي والشرتوني والشدياق والبستاني وغيرهم من أئمة البيان .

ولم يعرف الادب اللبناني العزلة والانكماش قط . انه

أدب يأخـذ ويعطي . استمد مادته من طبيعة لبنـان المخضوضرة الزاهرة الفينانة ، ومن الأدب الافرنسي .. ومن جو البحر الابيض المتوسط - ومن زرقة مائه وزرقة سمائه وشتي ثقافاته .. ولم ينأ قط عن الادب العـربي القديم - من الادب الجاهلي الى الادب الاندلسي .. فكان للآداب العربية من هذا المزيج المتفاعل أدب لبناني حي له قوته وله طلاوته ، له سحره وجزالته ، له عبـيره وله موسيقاه .. ولست اريد ان أعمد الى التـأريخ فأذكر الادباء البنانيين الذين عملوا في تأريخ النهضة الفكرية في الشرق ، والعوامل التي مهدت لازدهار هذه النهضة التى صنعها ادباء لبنان بحيويتهم العجيبة ، وحبهم الخالص لرسالة الادب ، وانسياقهم مع نزعات التطور ، وايمانهم بحرية

الفكر ، ومعالجتهم مختلف الموضوعات الفكرية واللغوية.
واضطلاعهم بعبء الصحافة العربية التى حملوا مشعلها الوضاء في ارض مصر ، وفي كل مصر ، بقوة واندفاع ومغامرة وصبر واخلاص - ان معالجة هذه النواحى تحتاج الي بحث طويل وقد تقتضي الباحث ان يكتب رسالة او يؤلف كتابا فحسبي من هذا الالماع ان أشير الى ان الادب اللبناني الذي بدأ في القرى اللبنانية الشامخة الذرى وتحت اشجار والصنوبر والارز - قصائد ومقالات ومعاجم ونقل ملاحم وموسوعة قد خطا اليوم خطوات سريعة واخذ يشارك في شتى فنون المعرفة والمذاهب الادبية مشاركة لها اثرها في تاريخ العقلية العربية الحديثة . وهو يلعب دوراً خطيراً في تطورها الفكري بما تقوم به

المؤسسات ودور النشر من اخراج عشرات الكتب ومئاتها وكلها تتسم بالطابع العصري الموجه الذي ينير للامة العربية الطريق في سيرها الطويل .. وللترجمة في لبنان شأنها المميز حتى كادت تسبق التأليف . . وتقوم هـذه الحركة اليوم على سواعد شباب يقظ آمن برسالة الادب فأخذ على عاتقه ان يتحرر من القيود ، وأن يفك السلاسل التى تعيق التفكير الحر ، وأن ينطلق في الآفاق ليقدم الى القارئ العربي كل ما يغذي شعوره ويصقل نفسه وينمّي تفكيره . . وللبنان في ترجمة الذخائر سابقة طيبة حسبنا ان نذكر الياذة هوميروس لسليمان البستاني ، ونهضة الترجمة اليوم وان كانت تتناول هذه الالوان من الادب الواقعي الخفيف الذي يتصل بأدب ما بعد الحرب العالمية الثانية فنرجو ان

يكون لترجمة روائع الادب العالمي نصيبها من عناية المترجم اللبناني لما لهذه الروائع من أثر في ادبنا وتفكيرنا .

والخلاصة ان الادب اللبناني هو رمز لحيوية الادب العربي المعاصر وهو يحمل مشعلاً وضاءً في جوّ حر وتحت سماء رحبة وأرض خصبة بالموحيات . .

ادب المهجر

وحين نتحدث عن الادب اللبناني فلا بدّ من كلمة عن أدب المهجر ، ونحن نعلم انه حين بدأت هجرة السوريين واللبنانيين الى الامريكتين الشمالية والجنوبية كان بين المهاجرين ادباء وشعراء يحملون في طوايا صدورهم جذوات من نفحات الادب ـ جذوات ظلّت حبيسة لا تشع الا في الظلمات . . فلما انتقلوا الى الآفاق الرحبة ، والى

الاجواء الحرة انطلقت تلك الاراء الحبيسة ترسم الخلجات وتصور النزعات في وطن جديد لا يخضع للقيود ولا لمناسبات التزمت . . وما هي فترة حتى تميّز أدب اولئك المهاجرين بلون خاص وطابع خاص . . واصبح صورة من صور الآداب الحية . . فيه جزلة وقوة - جزالة المبنى وقوة المعنى . . وقد مهّد لهم ذلك الجو الحر ان يرسموا تأملاتهم بروح ثائرة وأخيلة مجنحة . . وصفوا لوعة الهجر ووجد الشوق . . وهذه الاحاسيس الانسانية التي يحسها الانسان المفكر الحر . . وصفوا الكون والحياة بما في اسرارهما من قوى زاخرة . . ووصفوا طبيعة الانسان الحائر الذي حاول التفلسف فكان له من لا أدريته بعض مايطمئن نزعات حيرته . . وصفوا هذا ووصفوا الجمال في روائع

الطبيعة فكانت نزعاتهم التجديدية بدء الانطلاق في فهم رسالة الادب على حقيقتها، ولم تقف الاقمطة اللغوية التي تقيد روح الاديب الهائمة دون تصوير أحاسيسهم بصدق واخلاص .. وهكذا فقد تميّز ادبهم بظاهرتين واضحتين : الانطلاق والشمول . واريد بهما التحرر من قيود اللفظ والتجاوب مع كل ما في الحياة الانسانية من خلجات .

وبهذه الاتجاهات دخل الادب المهجري ميدان الادب العربي الحديث بقوة وعنف . وما كاد يستوي ويحتل مكانته في قلوب القراء .. وما كاد الكثيرون يتمثلونه ويحتذونه حتى وقف حيث بدأ .. أريد ان اقول انه وقف عند هذه الروائع التي كتبها جبران والريحاني ونعيمة والدرويش والحداد وعريضة والقروي وابو ماضي

وفرحات ومعلوف وغيرهم ممن ضمتهم « الرابطة القلمية » و « العصبة الاندلسية » وهي في ما تزال في الرمق الاخير، وكل ما نرجوه ان لا تنطوي تلك الصفحة المشرفة من هذا الادب النضير الحي الذي ترك في تاريخنا الادبي مقاماً ملحوظاً يداني ما للادب الاندلسي في ادبنا القديم من مقام ملحوظ .

الادب العراقي

الادب العراقي ، أدب زاخر بحياة الوجد والشوق والحنين ، بحياة الحب والبكاء والانين .. وبحياة القوة واثارة الهمم والتغني بالامجاد والمفاخر .. ظهرت ملامحه واضحة منذ دبت اليقظة في البلاد العربية كلها . فكان الشعراء والكتاب لسان هذه النهضة . . وربما كان الرصافي

والزهاوي والكاظمي والشبيبي واندادهم من الشعراء والكتاب أول من نفخ في بوق النهضة الفكرية في العراق .. ولا أحد ينكر ما تركه الرصافي ، وما تركه الزهاوي من اثر في حياة الفكر العربي وفي تاريخ النهضة الادبية في العراق .. لقد كانا رسل الثورة الفكرية .. وفي شعرهم هذه الصيحات القومية والنزعات الاجتماعية والتأملات الفلسفية وقد انبتت ارض العراق الخصبة عشرات الادباء والشعراء وكلهم يمثلون لوناً خاصاً من الادب العراقي الذي تميّز بصفاء العبارة وصدق العاطفة وحرارة الايمان بالامجاد العربية والاندماج بالادب العباسي العريق — كان هذا طابع الادب العراقي الى قبيل الحرب العالمية الكبرى ، وظل في نهجه يتعثر سيره لويداً تارة ، والمندفع تارة اخرى الى ان

أخذت العراق تسير قدماً في طريق الحياة وتجاري زميلاتها الاقطار الشقيقة ، وما مرّت هذه الفترة القصيرة او الطويلة لا أدري ، بين الحربين العالميتين حتى رأينا الحياة الفكرية تزدهر في العراق ، ورأينا لوناً جديداً من الادب العراقي يتميز هو الآخر بالقوة والانطلاق .. من اتجاهات قصصية ذات طابع محلي في إطار من الروح الانسانية التي تصور المجتمع العراقي ، الى شعر يجمع بين الروح القومية العارمة والتأملات الذاتية .. الى كتب مؤلفة ومترجمة في اغراض ثقافية مختلفة ، ولئن غلب عليه ، او على اكثر صوره ، الطابع القديم فان اتجاهه يتركز نحو الدنو من الآداب العالمية .. يبدو ذلك في ادب الشباب الذين ينزعون نزعات حرة منطلقة ..

ادب الجزيرة

والحديث عن ادب العراق يجرنا الى الحديث عن ادب الجزيرة . . ادب الحجاز ونجد والخليج العربي ، وهو ادب مغمور يمثل لون الجزيرة العربية . جوه الخاص ولونه الخاص وعبيره الخاص . . والصحف الادبية تنشر من حين الى آخر بعض القصائد والدراسات . . واذا هو ادب فيه رونق الضحى وسكون الليل ولألاء النجوم ، فيه قسوة الصحراء ورياحها العاصفة .. وهو أدب لم تتناوله الدراسات الادبية بعد لان يد الناشر لم تمتد الى هذا الانتاج الذي لا يزال اكثره في طي الكتمان ، ويؤسفني كل الاسف ان اغفل الحديث عنه لندرة المصادر وهو يستحق جولة في تلك الربوع والاتصال بالادباء والشعراء وتعرّف نزعاتهم

لكتابة بحث مستقل .

وما أقوله عن أدب الجزيرة أقوله عن الادب الذي تنتجه فلسطين الشهيدة - الادب الذي انتجته بالامس وتنتجه اليوم - انه ادب الدم والثأر ، وهو ادب قوي ضخم ، ولا مجال لبحث صوره وخصائصه في هذا الحديث ، وكل ما ارجوه - والكثير من مصادره تنقصني ، ان أخصه بدراسة مستقلة .

بعد هذه الجولة السريعة أقول كلمة موجزة عن الادب السوري . .

الادب السوري

ربما صح لغيري أن يتحدث عن الادب السوري ، لا لأن مواد تاريخه تنقصني ، ولا لاني اعيش في جوانه

بل لان مهمة المؤرخ الذي يستشرف مثل هذه الاحداث تقتضيه ان يكون في منأى عن قلب المعركة . . ومع ذلك فلا ضير عليّ ان اشير الى بعض مظاهر الحياة الادبية في سورية . .

فحياتنا الادبية ترجع الى خمسين سنة الى الوراء . . شأنها في ذلك شأن الحياة الادبية في سائر الاقطار العربية . . فقد ظهر أدباء ومفكرون سبقوا عصرهم وأخذوا على عاتقهم ان يوقظوا الشعب من غفوته الطويلة . . وكان الادب وسيلتهم لهزّ مشاعر الوسنانين عن طريق الصحف والقصائد والخطب . . وظلوا في طريقهم الى بداية الحرب العالمية الاولى التي نبّهت الافهام وايقظت المشاعر . وبدأ الشعراء والكتّاب يسيرون مع شعراء مصر وكتّابها . .

وكانت الصيحات تتجاوب في كل مكان وتتلاقى عند نقطة واحدة . . وهي التفاخر بالماضي واحياء التراث القديم والاخذ بأسباب النهضة الحديثة .

على هذه الامور وعلى دراسات محدودة في الادب والتاريخ دار أدب الادباء وشعر الشعراء .

ولكن الحياة الادبية لم تقف عند هذا النطاق المحدود بل تطورت مع تطور حياتنا الفكرية والاجتماعية والسياسية . اي ان تطورنا الذي لامس حياتنا في جميع مظاهرها قد انعكست اضواؤه على اذواق الشعراء ووجدان الكتّاب فكانت نهضة فكرية انتجت ادباً قوياً يتصل بعض الاتصال بالآداب العالمية . . يأخذ منها ليعطي القارئ العربي ألواناً طريفة . . واذا طائفة من الشعراء يرجعون

الى ذاتهم ، والى طبيعة بلادهم .. الى نضال الشعب وكفاحه .. الى ما يحسه الانسان .. واذا الادباء والمفكرون يشاركون مشاركة قوية في بناء الحياة الادبية على دعائم وطيدة بما ينشرونه من دراسات وما يلقونه من محاضرات وما يؤلفونه من كتب .. وما يترجمونه من روائع أدب الغرب .. وقد حرص المجمع العلمي العربي .. وحرصت دور النشر ومؤسسات الفكر والصحافة الادبية والسياسية - حرصوا جميعهم ان يكون حاضرنا موصول الامداد بماضينا الذهبي وأن يخلقوا من هذه الصلة في تاريخ العقلية العربية مستقبلا زاهرا يعيد ما كان للعرب في تاريخهم هذا الدور الخطير الذي لعبوه في تاريخ الفكر الانساني .

ان الادب السوري الحديث يستمد معينه من منابع

ثلاثة :

١ — من الادب العربي القديم

٢ — من أدب الامم الحية

٣ — من الذات السورية . . ومن طبيعة الارض ومن كفاح الشعب ونضاله في سبيل السيادة والحرية .

واذا كان « الكيف » اكثر قيمة في ميزان التقدير من « الكم » فان ما أصدرته المطابع السورية من كتب ودراسات على ضآلة عددها يعادل في قيمته وفي اثره ما صدر في غير سوريا من الاقطار المعنية حديثاً بشئون النشر . . أقول هذا لا عن طريق لزهو بل لتأريخ الحقيقة .

* * *

وبعد فان هذه الجداول الثرة التي تفرعت من نهر

الحياة الادبية في عالمنا العربي نراها تلتقي عند هذا المصب الكبير - عند نهر الادب الفياض - أدبنا العربي المعاصر ..

فما ميزاته .. وما خصائصه . وما أثره في حياتنا العقلية .

أظنني ألمعت ، الى خصائص أدبنا والى مظاهره في كلامي عن أدب الاقطار العربية ، فلا أعمد الى التكرار ، فهو في روحه أدب يصوّر ماضينا وتراثنا كما يصور واقعنا ومجتمعنا ونضالنا وكفاحنا تصويراً لا ينأى عن الحقيقة . وانا لنعلم ان الحياة الادبية لأية أمة من الامم هي مما يتكون من قصائد الشعراء الذين يكتبون أمجاد قومهم بالملاحم ويصورون نفوسهم وهو راجس لقصائد وصور مجتمعهم بالمسرحيات . ومن مقالات الادباء الذين لا

يتركون ناحية من نواحي الحياة الا عرضوا لها بالوصف والتحليل .. ومن مباحث النقاد الذين يعرضون للانتاج الفكري فيغربلونه ويزونه ليهدوا القراء الى مواطن القوة والضعف ، والصحيح من الزيف ، والجمال من القبح . ومن قصص الروائيين الذين يغوصون الى قلب المجتمع فيعرضون شتى شئونه باسلوب فني أخاذ .. من هذه التيارات ومن كتب المؤلفين ومَن يُعنون بدراسة التاريخ والاجتماع وطبائع البشر .. وما يبدعه الفنانون على اختلاف هوياتهم ونزعاتهم من رسم ونحت وتمثيل ورقص وموسيقى - من هذا كله يتألف الانتاج الادبي لأمة من الامم .

وفي ادبنا المعاصر اكثر هذه الالوان .. ولا يستطيع احد ان ينكر مكانة « الكتاب العربي » في نهضتنا

المعاصرة . . انه اليوم في وضع حسن . . وقد أتيح لبعض الباحثين ان يزيلوا التراب عن الكثير من تراثنا القديم ، وأخذ الشباب الجامعيون تحت اشراف اساتذتهم يضطلعون بنفس المهمة التي اضطلع بها المستشرقون فاستطاعوا ان ينشروا الكثير من الذخائر العربية القديمة . . وظهرت عشرات ومئات الكتب في شتى فنون المعرفة ؛ في الادب والتاريخ والاجتماع والفن والعلوم والحقوق والاقتصاد وكلها كتب قيمة اشتركت في تأليفها عقول متميزة اعتمدت على أصفى المذاهب . وهي في مجموعها « تبرز ما في ثقافتنا في من اسباب القوة وعلامات التميز . . ومع انها ثقافة ذات طابع محلي ، فهي ذات صفة انسانية ، تجمع بين القديم والجديد . في مرونة لا يفسدها التناسخ ولا

يعصف بها التجديد ، وتزاوج في انتاجها بين روح الشرق وروح الغرب في تكامل مثمر واتساق جميل » .

قد يقول قائل إن الانتاج الادبي في مجموعه كان في الفترة التي مرّت بين الحربين العالميتين اكثر قيمة مما هو الآن . . يتسم بطابع الاتزان ، وكان للتأليف مقامه ، وللدراسات مكانتها ، حتى المقالة لم تكن ترسل الى المطبعة قبل ان يستوفي كاتبها كل عناصر القوة فيها سواء من حيث المبنى او المعنى . . او الفكرة التي يبسطها . . وهو قول فيه كل الحقيقة وان اغضب هذا القول بعض ادبائنا الشباب . . ولا يستطيع ان ينكر احد ان الادب العربي قد ركد ركوداً مزرياً في الفترة التي اعقبت الحرب العالمية الثانية . . ولكنه ركود التوثب . . رقــد الدفع

الادباء الشباب ، منذ بضع سنوات ، يحملون تلك الجذوة المقدسة التي حملها ولا يزال يحملها اعلام المدرسة الحديثة الذين خلقوا هذه النهضة الادبية التي يتمتع بثمارها الجيل المعاصر .. ولا اريد ان أشير الى المعركة التي نشبت اخيراً وما تزال بين ادباء الشباب وادباء الشيوخ . انها في اعتقادي تختلف كل الاختلاف عن تلك المعركة التي نشبت بالامس بين المجددين والقدماء . فأدباء الشباب يلتقون مع ادباء الشيوخ عند هدف واحد ونهج واحد ونزعات حرة واحدة . بينما الخلاف بين المجددين والقدماء بالامس كان على امور كثيرة .. بين فئة تريد ان تكون معصوبة العيون ، مشدودة الى القديم ، لا تفكر الا بتفكير القدماء ، وفئة قد آمنت برسالة الحياة وبما تفرضه الحياة فانطلقت

تبحث الماضي والحاضر بروح جديدة وتتطلع الى المستقبل بفهم جديد ووعي يقظ . . وكما قلت لا يستطيع انسان مثقف ان ينكر على ادباء الشيوخ نزعاتهم الحرة وأدبهم الذي رسم أدق صور حياتنا ومجتمعنا . . انهم قادة الحركة الذين مهدوا لهذا الجيل ان يؤمن شبابه برسالة الادب الحي . وهذا ما لا ينكره المنصفون من ادباء الشباب الذين اثاروها لا لشيء الا لكيلا ينقطع معين انتاجهم ، وقد ظفروا بمناوراتهم اللبقة ورأينا غير واحد ممن استهدفوا لحملة الشباب يندفعون في خوض المعركة ويربح الادب من هذه الخصومة مقالات ودراسات ترمز الى بداية حركة جديدة في أدبنا المعاصر .

وبعد فنقف عند هذا الحد من هذا العرض السريع

لآخذ على حياتنا الادبية خلوها من ظاهرتين قويتين :

١ — النقد النزيه الذي يوجه رسالة الادب في طريقها القويم ، وتعلمون ان حياتنا الادبية تكاد تخلو من النقاد وان كنت استثني غير واحد من كبار الادباء عالجوا هذا الموضوع بتجرد في طليعتهم الدكتور طه حسين الذي بدأ حركة النقد ثم تركها ثم عاد اليها ثم تركها وهو الان يداعبها قلمه احياناً برفق لا تخلو من عطف وايثار .. والاستاذ مارون عبود الذي يضطلع وحده في لبنان بهذه المهمة حتى كادت صراحته تفقده الكثير من الاصدقاء .

٢ — حرية الاديب حرية مطلقة ليجد امامه الآفاق الرحبة للتعبير عن آرائه وخلجاته بدون خوف او الزام .

ولا اسهب في بيان اثر هاتين الظاهرتين في حياتنا العقلية وتطور ادبنا المعاصر فحسبي الالماع والسلام .

تصويبات

الصفحة	السطر	الصواب	الصفحة	السطر	الصواب
١١	٧	هذه الاخادم	١٦٦	١٠	وماهي الاساعات
١٥	٥	بعا يوائم	١٧٣	٢	القرن العشرين
٢٩	١٢	الشفيق	١٧٦	١١	والمعاصرين
٣٩	٣	متي	١٨١	١٠	وهاهوذا
٤٠	٨	ولئن	١٨٢	٣	ـر
٦١	٧	كثيرون	١٨٣	٣	هانحن اولاء
٧٠	١	استقي منه	١٨٥	٣	وأبي العلاء
٨٩	٥	وتُمحى	١٨٩	٧	العميقة
٩٨	٦	تتصاءم	١٨٩	٩	يطمئن
١٠٠	٦	الأهي	٢٠٨	١٢	مطراناً
١٠٧	١٢	السنين	٢٢٢	١٠	الالى
١١٤	٣	ويكتسح	٢٢٨	٩	بنبأ
١٢٥	١	وهأنذا	٢٣٢	١	ستاً
١٣٣	٢	الخواطر في اليقظة	٢٤٧	٩	تدخل صميم
١٥٤	٦	ظمئت	٢٦٣	٣	وماهي الافترة
١٥٥	٦	صداؤها	٢٧٦	٩	ثقافتنا

٢٧٤ ١١ اضطرب تنضيد السطر ١١ وصوابه :
« الملاحم ويصورون هواجس تموسهم بالقصائد »

الفهرس

للمؤلف :

نظرات في النقد والتاريخ والادب

شهر في اوروبا

سيف الدولة وعصر الحمدانيين

الفكر العربي بين ماضيه وحاضره

الراحلون

ابو العلاء : دفاع ابن العديم عنه

من اضواء الماضي - مباحث تاريخية - « سلسلة اقرأ » -

انواء واضواء - مجموعة قصصية -

المرأة : هذا اللغز الابدي

مع طه حسين - « سلسلة اقرأ »

بنت يزيد - قصة معربة -

الحكيم شهاب الدين السهروردي « سلسلة نوابغ الفكر العربي »

مطابع الحديث - حلب - شارع بارون